البابُ الأول

أوصَاف الناس في التواريخ والصلات

القسم الأول

obeikandl.com

obeikandl.com

اللوحة الاولى من « أوصاف الناس »
مخطوط الاسكوريال (الغزيرى 1835)

اوصـــاف الناس فى التواريخ والصـــلات

(71 . ب) فمن ذلك (1) مـــا صدر عنى ممـــا ثبت فى كتاب :

التـــاج المحلى ، فى مساجلة القدح المعلـــى (2)

1 ــ جعفـــر ابـــن الزيـــات

علم الاعلام ، وخاتمة شيوخ الاسلام . تجرد للعبادة فى ريعان شبابه ، ولازم جناب الله وأكثر الوقوف ببابه . ولم تزل الفتوحات القدسية تعرض عليه أذواقها ، والمحبة الربانية تصلح لديه أشواقها ؛ وتدير لديه دهاقها ، حتى خلع لباس هذه البدنيات ونزع نطاقها ، وبث فى أسباب هذه الاكوان ذوات الالوان ، وأزمع فراقها . فأصبح فردا تشير اليه الابصار ، وتنال ببركته الاوطار ، وتحدى لرؤيته القطار .

---

1) اسم الاشارة يعود الى ما اشتمل عليه مؤلفه « الريحانة »

2) هذا الكتاب لابن الخطيب عبارة عن مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ تأسست على يد زعيم بنى نصر (محمد الاول ابن الاحمر) حتى عصر المؤلف ، بالاضافة الى تراجم لاعيانها المعاصرين له ، كما يترجم فيه ابن الخطيب لنفسه ولوالده . ويوجد جزء من « التاج المحلى » فى المخطوط رقم 554 (فهرست الغزيرى) بالاسكوريال ، ويمثل هذا الجزء المخطوط 53 لوحة من 71 الى 132 . وفى الخزانة العامة بالرباط توجد طائفة من تراجم « التاج المحلى » بالمخطوط رقم 1102 ضمن آثار أخرى له يضمها المجموع الذى عنوانه « مجموع مراسلات وتراجـــم ابن الخطيـــب » .
اما « القدح المعلى » فهو لابن سعيد الاندلسى (ابن الحسن على بن موسى) المتوفى عام 73 هـ وهو يتناول بالترجمة طائفة لا بأس بها من علماء وأدباء الاندلس الذين قضى جلهم خلال النصف الاول من القرن السابع الهجرى ، وقد نشر « القدح المعلى » بعناية المحقق الاستاذ ابراهيم الابيارى بالقاهرة عـــام 1959 م .

ودعى الى السفارة فى صلاح المسلمين (72 . أ) فأجاب ، وسعى فى اخماد الفتنة فانجلى ليلها وانجاب ، وأعمل فى مرضاة الله ــ الاقتاب، وخــاص العبــاب .

وكان ببليش (3) ببلده منتجع رائد ، ومعدن فرائد . وفجر الله ينابيع البلاغة على لسانه ، وجعل زمام الفصاحة طوع لسانه . فدون بالنظم فى شتى الفنون ، وجلى المعارف مفوفة المطارف للعيون . فكان يقعد بمسجدها الجامع فيدرس ويحلق ، ويهذب ويخلق . فيأتى من الاعراب بالاغراب . ويتكلم فى التفسير بغير اليسير ، ويلمح من التعليل لا بالقليل . ويشير الى فريقه برموز طريقه .

ولما نادى به منادى فراقه ، وغيب الدهر نور اشراقه ــ بكت عليه الربوع دما ، وأصبح وجودها عدما .

وقد أثبت من آدابه وشعره « فى التاج المحلى » (4) ما يدل بسعه صدره ، ويدل على قدره .

---

3) توجد ثلاث مسميات لثلاث مدن متوسطة بهذا الاسم ، أولاها ــ ولعلها التى يقصدها المؤلف ــ « بليش مالقة » الاسبانيه Velez Malaga وموقعها غرب مالقة على مسافة 34 كم ، وقد أوردها ابن الخطيب فى كتابه « معيار الاختيار » واصفا لها بعد وصفه « مالقة » والمدينة الثانية هى « بليش الشقراء » وتدعى فى الاسبانية Velez Robio وموقعها قرب مدينة لورقة ، وقد وصفها المؤلف أيضا فى « المعيــار » .
أما الثالثة فتسمى « بليش البيضاء » وتعرف فى الاسبانية Velez Blanco وهى قرب الثانية وقد تكون أحدث الثلاثة .

4) هكذا سيكون مسلك ابن الخطيب لمن يترجم لهم جميعا بدءا من « جعفر ابن الزيات » حتى نهاية الكتاب فى الاحالة على كتابه « التاج المحلى » فيما يتصل بآثار المترجم لهم من نثر او نظم او خطب جادت بها قرائحهم ، ولهذا سنحاول ــ قدر الاستطاعة ــ ان نورد شيئا من هذه الآثار اقتباسا من « التــاج » او غيره لمن عنى بأمثال هؤلاء مترجما لهــم .

ومن ذلـك فى وصـف :

2 ـ أبـى الحسـن القيجـاطى

(72 . ب) أخطب من صعد المنابر وارتقاها ، وأفصح من هذب العبارة وألقاها ، واستجادها وانتقاها . نجم ببلدية الشرق ، وتألق فى افقها تألق البرق . ولم تزل رتبته فى ارتفاع حتى استأثرت الحضرة (5) به على ما سواها ، فاحرز فيها الغاية وحواها ، ونشر معارف المطارف وما طواها . فنفق للادب سوقا ، بسقت فروعها بسوقا ، وقلد بحـر العصر من عقوده درا منسوقـا .

ثم تقدم خطيبا بمسجدها الجامع ، فقرط بألفاظه الرائقة عاطلة المسامع ، وأسال بمواعظه البالغة درر المدامع . وهو منجد الحلبة ومخرجها ، وموقد الاذهان وسرجها .

خبا ـ بوفاته للعلم ـ كوكبه الثاقب ، ووريت بمواراته المفاخـر والمناقب . وله نظم تعطرت المجالس بجرياله ، وتعلقت المحاسـن بأذياله . ونثر حسدت عقود الغانيات درره ، وغارت النجوم الزهـر لمـا اجتلت غـرره .

---

5) الحضرة . العاصمة ، وهى يومئذ غرناطة النصرية ، نسبة الى بنى نصـر المعروفين ببنى الاحمر ، حكموا مملكة غرناطة ما يربو على مائين وخمسين عاما (635 ـ 897 هـ / 1238 ـ 1492 م) ومؤسسها محمد ابن يوسـف بن الاحمر ، وآخر ملوكها ابو عبد الله محمد على بن سعد بن محمد بن يوسف النصـرى .

انظر : تحقيقنا «كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان» ، لابن الخطيب ص : 16 ـ 24 (القاهرة 1966 م) .

ومن ذلـك فى وصـف :

3 ــ أبـى اسحاق بن أبى العـاص

حابق حلبة العلم والدين ، والمستولى على قصب السبق فى تلـك الميادين . أتت طريف (6) منه بطرفة رائقة ، وأغرب منه هذا المغرب بروض تحسد الرياض حدائقه . ورد على هالتها أبرارا . وانتظم ــ لاول حلوله ــ فى طبقة الكتاب والعود قشيب ، وفود الوقت لم يرعه للمقت

---

6) طريف ــ Tarifa مدينة اندلسية تقع على لسان يمتد فى البحـر الابيض المتوسط من الناحية الجنوبية الغربيـة لاسبانيا فى مواجهة مدينة الجزيـرة الخضـراء Algeciras التى تقع فى الجهة الشرقية ، وبين المدينتين هضاب وسهول تفصلها بعض الاودية الصغرى . وتعتبر طريف اول بقعة اندلسية حل بها العرب منذ ان تطلعت انظارهم الى فتح شبه الجزيرة الايبيرية ، فقد حدث خلال عام 91 هـ (710 م) ان جازت البحر من سبتة حملة اسلامية صغيـرة قوامها 400 محارب كبعثة كشف واختبار ارسلها من المغرب موسى بن نصير بقيادة احد مواليه من البربر ، واسمه طريف بن مالك ، فنزل هذا القائد الرسول برجاله فى المنطقة المقابلة لمدينة سبتة المغربية من جهة الغرب ومنذ ذلـك الحين والمنطقة تعرف باسم قائد هذه البعثة العسكرية .
وطريف كمدينة اندلسية لها تاريخها التليد من حيث موقعها البحرى الهام ، ذلك الذى اهلها لان تكون ابان العصر الاسلامى محطا « استراتيجيا » هاما لنزول المغاربة المحاربين ، شأنها فى هذا شأن جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وقد لبثت هكذا مدينة حربية حتى سقطت فى أيدى الاسبان فى المعركة الشهيـرة « معركة طريف الكبرى » La Batalla del Salado التى هزم فيها الاندلسيون والمغاربة (جمادى الاخرة 741 هـ = 30 اكتوبر 1340 م) .
من آثار طريف الاندلسية بقايا ضئيلة متفرقة من السور القديم ، كالجزء الذى يمتد الى اليسار من باب شريش وبه عدة كوى صغيرة ، وجزء آخر موقعـه تجاه الحصن العربى ، وجزء ثالث من السور يلاصق منتزه المدينة . أما الحصن فيغلب على الظن أنه من بقايا القصبة العربية لمعقوده ذات الطـراز العربـى ، وهو يشرف على البحر من الناحية الخلفية للمدينة .
راجع . السلاوى فى « الاستقصا » ج 3 . 136 وما بعدها ، ورحلة الغزال الفاسى ، ص 16 ، والمقرى فى « النفح » ج 3 ص 96 وما بعدها .

مشيب . والربع آهل والوارد فى الرفد ناهل . متميز بخصائصه الحسنى ، وتأهل للمحل الاسنى . وقعد للجملة بعد فقد صدرها ، وأفول بدرها ، وحلول شمسها فى رمسهـا .

وخلف أستاذها ابن الزبير خير خلف ، وأصبحت لشأنه من أنشد فيه « انما الدنيا أبو دلف » (7) وصعد المنبر فجلت الخطوب خطبه ، وهز منه الجزع فتساقطت رطبه . فأبكى العيون الجامدة ، واثار العزائم الخامدة . وأخذ بقلوب الدهماء فاستمالها ، وبلغ منهم الغاية التى أراد ونالها . وحمل نفسه بآخرة الى الجود ، والاتيان بالحاضر الموجود . (73 : ب) فكان للفقراء عالا ، وللمعتفين (8) قالا ، وللعصر وأهله زينا وجمـــالا .

وقضى لسبيله ــ رحمه الله ــ فقيدا أسال الغروب ، وهـاج ــ للاشجان ــ الحـــروب .

وكان له أدب أنيق الشارة ، حسن الاشـارة .

---

7) هذه العبارة شطر من قصيدة للشاعر العكوك بن جبلة ، حيث يقول :

انمـــا الدنيـــا ابـــو دلـــف بـــين مغـــزاه ومختصـــره

فـــاذا ولـــى ابـــو دلـــف ولـــت الدنيـــا علـــى اثـــره

وابو دلف هذا هو القاسم بن عيسى بن ادريس العجلى ، امير الكرخ ، وسيد قومه واحد الاجواد الشعراء ، كان من رجال الرشيد وابنه المأمون . وقد عقد له الكاتب ابن طيفور جزءا خاصا فى كتابه (بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية) عند حديثه عن المأمون ، توفى « ابو دلف » هذا عام 226 هـ .

8) المعتفون . هم من يتعففون عن سؤال الناس رغم الحاجة ، وقد أشار اليهم القرآن الكريم فى قوله تعالى « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » .

ومن ذلـك فى وصـف :

4 ــ أبـى القاسم بـن جـزى (9)

مجتهد عاكف ، وروض فنون جاده من العلم كل واكف . أقام رسم مجده ، ورفع عمد بيته ، فى قمة العلم ونجده ، فأصبح صدر بلده ، وأنجب خلفين كريمين من ولده . وفرغ للعلم من جميع أعماله ، وتفيأ رياض دواوينه عن يمينه وشماله ، واقتصر على طلب كماله ، مع وفور ضياعه ونمو ماله . فدون الكثير وصنف ، وقرط المسامع وشنف . وترقى الى الخطابة ــ وهى ما هـى من جلال الرتبة ، وسمو الهضبة ــ ففـرع سنامها ، ورفع أعلامها ، وغض شبيبته ناضر ، وزمن فتائه حاضر . فوقع عليه الاتفاق ، وانعقد ــ على فضله ــ الاجماع والاحقاق .

ولم يزل يسلك طريق المجتهدين ، فدون فى الفقـه والدواوين . وسفر فى علم اللسان عن وجه الاحسان . ورحل فى علم التفسير الى كل طية ، وركض فى أغراضه كل مطية ، حتى أنشأ الزمخشرى (10) وابن عطيـة (11) .

وله ــ من الادب ــ حظ وافر ، ومذهب عن ــ الحسن ــ سافر .

---

9) أحد شيوخ المؤلف لسان الدين ابن الخطيب ، وممن تتلمذ عليهم فى ميدان الخطابة خاصة . وقد ترجم له الامير اسماعيل ابن الاحمر ، فى « نثير فرائد الجمان » والمقرى فى « النفح » وغيرهمـا .
انظر « يوسف الاول ابن الاحمر » تأليف المحقق ، ص 60 (القاهرة 1969 م) .

10) هوالشيخ ابو القاسم محمود المعروف بالزمخشرى، نسبة الى احدى قرى خوارزم والمولود بها عام 1075 . وهو امام عصره فى اللغة والنحو والبيان والتفسير ، كان معتزلى الاعتقاد ، من تأليفه « المفضل فى النحو » و « الفائق فى غريب الحديث » و « أساس البلاغة » وأخير « الكشاف عن حقائق التنزيل » وهـو تفسيره الذى اشتهر فيه بآرائه الاعتزالية خاصة .

11) سيفرد له المؤلف فيما بعد ترجمة مستقلة .

ومـــن ذلك فى وصـــف :

5 ــ ابى البركات البلفيقى (1)

واحد الفئة ، وصدر صدور هذه المائة . ورجل الحقيقة وابن

---

1) هو قاضى الجماعة الشيخ محمد بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن خلف السلمى ابو البركات بن الحاج البلفيقى ، والنسبة الى « بلفيق » حصن بأحواز مدينـــة المرية جنوب شرق الاندلس . يتصل نسبه بحارثة بن العباس بن مرداس ، نشأ بالمرية منزويا ، متعبدا ، عبر البحر الابيض المتوسط الى بجاية ، حيث التقى بالعلماء من معاصريه ، فأخذ عنهم ، لا سيما استاذ العصر ابا على منصـــور بن احمد بن عبد الحق المزالى ، ثم تحول الى مراكش ونواحيها ، ثم اقام فترة بسبتة ، واخيرا عاد الى الاندلس ، فاشتغل بالتدريس والقضاء والخطابة بادىء الامر بمدينة مالقة اوائل عام 735 هـ (سبتمبر 1334 ــ 20 اغسطس 1335 م) ، ثم تولى القضاء فى بلاد اخرى ، حتى نقل الى غرناطة قاضيـــا للجماعة فى 23 شعبان عام 747 هـ (6 فبراير 1347 م) ثم صرف عن القضاء بغرناطة حيث ارتحل الى المرية ، وتقلد نفس المهنة اوائل رجب 748 هـ (اكتوبر 1347 م) ثم اعيد الى العاصمة مرة اخرى فى اواخر رجب 756 هـ (اغسطس 1356 م) ، وخلال هذه الفترة كثيرا ما انتدبه السلطان ابو الحجاج يوسف الاول سفيرا الى معاصريه من الملوك المسلمين ، ولابن الحاج مؤلفات عديدة ، ولكن معظمها غير تام او غير منقح فى مبيضات ، كما روى عـــن نفسه ، حيث جاء فى « الاحاطة » قوله معللا ذلك : « وقد ذهب شرخ الشباب ونشاطه ، وتقطعت أوصاله ووصل رباطه ، واصبحت النفس تنظر فى هذا كله بعين الاهمال والاغفال ، وقلة المبالاة التى لا يصل بها احد الى منازل الرجال . وهذه الاعمال لا ينشط اليها الا المحركات التى هى مقصودة عندى » وهكـــذا يمضى فى سرد الدوافع المفقودة عنده لابراز مؤلفاته الى عالم الوجود ، ولعل الاحداث التى عاصرها وما لابسه منها قد أملت عليه هذا الاتجاه نحو السلبية . ولابن الحاج القصائد المطولة ، نظمها فى اكثر من غرض ، وخاصة فى الوعظ والارشاد ، كما أن له باعا فى النثر . وقد استقر مقام هذا القاضى مؤخرا بمدينة المرية قاضيا بها وخطيبا ، حتى وافته منيته خلال شهر رمضان من عام 773 هـ (ديسمبر 1372 ــ يناير 1373 م) حيث دفن بنفس المدينة .
راجع : « الاحاطة » ج 2 ص 102 ــ 106 ، و « تاريخ قضاة الاندلس » للنباهى ص 165 ثم « يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة » للدكتور شبانـــة ص 79 ــ 82 نشر . لجنة البيان العربى بالقاهرة 1969 م .

رجالها ، وعلم هذه الطريقة وفارس مجالها ، وتحفة الدهر التى يقل لهـا الكفاء ، وبقية السلف التى يقال عندها : « على آثار من ذهب العفاء » .

ما شئت من شرف زاحم الثريا بمناكبه ، ومجد خفقت بنود العلم فوق مواكبه . وحسب توارثه الكابر عن الكابر ، وأصالة تأملت أرواحها بين بطولة المحاريب وظهور المنابر ونشأة سحبت من العفاف ذيلا ، وغضت الطرف حتى عن الطيف ليلا . ومعرفة لا يساجل لجها ، ولا يراجع صبحها ونغمة فى تلاوة القرآن ، يخر لها الناس على الاذقان .

ولما أمعن فى المعارف كل الامعان ، و « منهومان ــ كما قال عليه السلام ــ لا يشبعان » تشوف الى الرحلة عن بلاده ، وزهد فى طريفه وتلاده . فأخذ الحديث عن أهله ، وذهب من العلم فى حزنه وسهله . وبلغ الغاية حتى رحل الى بجاية (2) وبها علم الدين وناصره (3) ، (74 ب) وروض العلم الذى أخصب جانبه وخاصره ، ففاز بلقائه ، ونهل من سقائه ، وصرف فهمه الثاقب الى القائه . فحصل واستفـاد ، واقتنى من كنوز رحلته ما لا يخاف عليه النفاد .

قدم على قدارة مجده ، قدوم النسيم الحجازى من نجده . فأشارت اليه الاحداق واشرأبت الى طلوعه الاعناق . ولم تزل بدائعه تتقلدها الصدور ، ومحاسنه تغار منها الشموس والبدور ، والسعادة توافيه ، والخطط الشرعية تتنافس فيه ، وخطبته الآن خطابة قطره وهو كفؤها وابن

---

2) بجاية ــ بكسر الباء وتخفيف الجيم ، مدينة على ساحل البحر الابيض المتوسط بين افريقية والمغرب اختطها الناصر بن عنان بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين عام 457 هـ (منتصف القرن الحادى عشر الميلادى) وتسمى الناصرية ، نسبة الى مؤسسها . كانت ميناء هاما للقوافل البحرية والتجارية وهى اليوم احدى المدن الجزائرية الساحلية المعروفـــة .
راجع : « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » للوزير لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق د. شبانة ص 79 هامش 2 نشر دار الكاتب العربى بالقاهرة 1969 م .

3) يقصد به استاذ العصر أبا على منصور المشدالى ، والمشار اليه فى التعليقات الســابقـــة .

أكفائها ، ومحى رسومها بعد اعفائها ، فتلقى رايتها بيمينه ، واستحقها بسلفه وعلمه ودينه .

ومن ذلك فى وصف :

6 ــ أبى جعفر ابن خميس

قريع صلاح وعبادة ، ورضيع ثدى دين وسجادة . كان بالخضراء (4) بلده ــ رحمه الله ــ صدر صدورها ، وواسطة شذورها ، وخطيب حفلها ، وامام فرضها ونفلها وباشر حصارها ، وعانى ــ على العصور ــ اعصارها .

75 . أ) وله دعاء مستجاب ، وخواطر ليس بينها وبين الحق حجاب . وبركة تظهر عليه سيماها ، وديانة لا تعرف الشبهات حماها . وبلاغة لا يشح ينبوعها ، وتقفز من المعانى ربوعها . يدعو الفقر (5) فيذعن عاصيها ، وينزل عصم المعانى من صياصيها .

وقضى ــ رحمه الله ــ فتغير ذلك القطر (6) لذهابه ، واظلم ذلك الافق لافول شهابه .

ومن ذلك فى وصف :

7 ــ ابى زكريا ابن السراج

حامل فنون جمة ، وصاحب نفس بمعادها مهتمة ، شمر فى زمن الشبيبة عن ساقه ، واجتنى ثمرة العلم من بين أوراقه ، وجمع الكثير من

---

4) هى « الجزيرة الخضراء » وتعرف اليوم فى الاسبانية باسم ALGECIRAS

5) فقر . بكسر فتح كعبر ، والمفرد . فقرة بفتح فسكون كعبرة .

6) يعنى بالقطر . الاندلس

مختلفاته على بعد شامه من عراقه . حتى انفسح فى المعرفة مجاله ، وشهدت له بالاجادة شيوخه ورجاله . وهو الان خطيب معقل الجبل (7) ــ حرسه الله ــ على طريقة غريبة ، وحالة من الله قريبة ، ملازم لظل جداره ، منقبض فى ركن داره ، ذو همة يحسدها (75 . ب) النجم على بعد مداره ، ورفعة مقداره .

لقيته والحال سقيمة ، والحملة ــ بظاهر جبل الفتح ــ مقيمة (8) ، والعدو فى العدوان متبصر ، والكفر محلق وحزب الهدى مقصر (9) . فرأيت رجلا بادى السكينة والوقار ، ناظرا للدنيا بعين الاحتقار ، زاهدا فى المال والعقار ، صاحب دمعة مجيبة ، ومجالسه عجيبة . فكان لقاؤه فائدة الرحلة العظيمة العنا (10) وموجبا لها حسن الثنا . وله قسم من البلاغة وافر ، رحمة الله عليه .

---

7) يعنى به : جبل طارق .

8) يرمى بذلك الى الحملة التى قادها الفونسو الحادى عشر القشتالى ، حين حاصر جبل طارق الذى كان ممتنعا بحامية مغربية قوية ، واشتد الحصار يوما بعد يوم ، وجاء يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة فرابط بجيشه خلف جيش النصارى ، ولبث الوضع الحربى تجاه الجبل على هذه الحالة ، حتى انقضى عام كامل على هذا الحصار . ثم يتدخل القدر لصالح المسلمين ، ذلك ان الوباء قد تفشى بين جنود النصارى وقضى على ملك قشتالة فى مقدمة من قضى عليهم من جيشه ، الامر الذى اضطر الاعداء الى فك الحصار ، فكان هذا بشارة بخلاص الجبل والمدافعين عنه من الداخل والخارج ، وذلك فى ليلة عاشوراء من عام 751 هـ (26 مارس 1350 م) .
راجع : مخطوط « الاحاطة » الاسكوريال 1673 جـ 2 ص 382 وما بعدها .

9) توريــة لطيفة فى ثوب من تعبير به اشارات الى بعض مناسك الحج .

10) يشير ابن الخطيب بهذا الى انه كان ضمن حاشية السلطان فى ذلك الحصار .

ومن ذلك فى وصف :

8 ـ أبى جعفر ابن أبى خالد ، رحمه الله

سابق لا تدرك غايته ، وبطل لا تحجم رايته ، وبليغ تزرى بالافصاح كنايته . وطلع بذلك الافق ونجم ، وطاب عارض بيانه وسجم ، وعجم من عود البلاغة ما عجم ، فأطاعته القوافى والاسجاع ، وأداه الى روض الاجادة والانتجاع . ولم يزل يشحذ قريحته الوقادة ويستدعيها ، (76 . أ) ويسمع الحكم ويعيها ، حتى توفرت فى البراعة اقسامه ، وطبق مفاصل الخطاب حسامه . فطرز المهارق ووشاها وفضح أسرار البلاغة وأفشاها ، وأتى من الرسائل بالآتى السائل . الى الدين الذى لا تغمز قناته ، والخلق الذى يرضى الله حلمه وأناته .

وهذا الخطيب وابن عمه (11) فرسا رهان ، ومقدمتا برهان ، وعلما بيان ، ورضيعا لبان . لكن النثر أغلب على لسانه ، والخطابة أعرق فى نسب احسانه .

ومن ذلك فى وصف :

9 ـ أبى سعيد ابن لب (12)

سابق ركض ملء عنانه ، وشارق طلع فى أفق أوانه . أورى له زند الذكاء اقتداحا ، وأجال فى كل فن قداحا ، فجلى فى ميدان الاجادة وبرز ،

---

11) لم يفصح المؤلف عن اسم هذا الغريب .

12) اسمه فرج ، من أعلام الاندلسيين ، ولد عام 700 هـ (1300 م) وتوفى عام 782 هـ (1381 م) وهو من أشهر أساتذة مدرسة غرناطة التى انشاها السلطان أبو الحجاج يوسف الاول ، على يد حاجبه أبى النعيم رضوان النصرى عام 750 هـ (1349 م) .

وطرق المجالس وطرز . فان نقل أوضح العبارة وصقل ، وان نظر وبحث ، نشر رسم المعانى وبعث ، وان بين وعلم أقر له المنازع وسلم .

الى خلق أطيب من الراح ، وأصفى من الماء القراح . وله فى فريضة الادب سهم ، وفى معاناة المعانى تحقيق لا يدخله وهم . (76 . ب) وتقدم للخطابة ببعض أرباض الحضرة فوفى الرتبة حقها ، وسلك من الديـانـة طوقهـا .

ومن ذلـك فى وصـف :

10 ــ أبى يزيـد خالد ابن أبى خالـد

أمام بادية ، وضارع بذكر الله فى كل رائحة وغادية ، أنس بالوحدة والانقطاع ، وتعلل بقليل من المتاع . وانقبض وتقشف ، وقبل ثغـر الحقيقة وترشف . وأكرم به من مجموع خصل ، وضارب فى هدف القبول بنصل . الى اخلاق بينة الحلاوة ، ونغمة طيبة عند التلاوة ، وأدب عطر الجريال ، موشى الطرر والاذيـال .

ومـن ذلـك فى وصـف :

11 ــ أبى عبـد الله اليتـيـم (1)

مجموع أدوات حسان ، من خط ونغمة ولسان ، اخلاقه روض تتضوع نسماته ، وبشرة صبح تتألـق قسماته ، ولا تخفى سماته ،

---

(1) هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن على بن محمد العبدى ، ترجم له ابن الخطيب فى (التاج المحلى) وكذا فى « الكتيبة الكامنة » ص 59 ــ 60 حيث ذكر لـه نموذجا رقيقا من شعره . كما نقل المقرى فى (النفح) بعض مراسلات بينه وبين ابن الخطيب ج 8 ص 200 ــ 204 ، توفى رحمه الله عام 750 هـ .

يقرطس أغراض الدعايـة ويصميها ، ويفـوق سهام الفكاهـة الـى مراميها . فكلما صدرت فى عصره قصيدة هازلة ، أو أبيات منحطة عن الاجادة نازلة ، خمس أبياتها وذيلها ، وصنف معانيها (10 : أ) وسيلها ، وتركها سمر الندمان ، واضحوكة الزمان .

وهو الآن خطيب المسجد الاعلى من مالقة متحل بوقار وسكينة ، حال من أهلها بمكانة مكينة ، لسهولة جانبـه ، وانضاح مقاصده فـى الخير ومذاهبه واستقل لاول مرة بالتعليم والتكتيب وبلـغ الغايـة فى الوقار والترتيب ، فالشباب لم ينصل خضابه (2) ، ولا سلت للمشيـب عصابة ، ونفسه بالمحاسن كلفة صبة ، وشانه كله هدى ومحبة .

ومن ذلـك فى وصـف :

12 ــ ابى عبد الله الخريرز الخياط حرفة

اديب على السنن سالك ، وبليغ لزمام القول مالـك . كـان ــ رحمة الله ــ خطيبا بثغر وبرة ــ تولى الله جبره ، وأعاد الى ملكـة الاسلام أمره ــ على طريقة مثلى ، وسيرة فضلها يتلـى ، اخـذ فى فنون ، ومحاضر من الادب بعيون . وكان رصافى الانتحال والحرفة ، وكم بين الراح المشوبة والصرفة . ولم اظفر من نظمه ــ على كثرته ، وتألق أسرته ــ الا بأبيات ، نسبها اليه بعض (10 : ب) أصحابه ، المعتنين بنقـل آدابـه .

---

2) خضاب نصول : حناء مزالة .

ومن ذلــك فى وصــف :

13 ــ أبى عبد الله البــدوى

خطيب طلق اللسان ، وأديب رحب الاحسان . تشرف بالرحلــة الحجازية ولبس من حسن الحجازية . ثم أسرع ببلده فحط لعتاده الرحل . وأقبل اليه اقبال الغمامة على المحل ، فعظم به الاغتباط ، وتوفر تعدى ــ فى الخطابة ــ النشاط ، ولم تثن ــ عن الغرض فيه ــ الدعابة والانبساط .

وهو الآن خطيب بها يحرك المجامع ، ويقرط المسامع ، ويرسل من الجفون المدامع . وله فى العربية حظ وافر ، وفى الآداب قســم ســافــــر .

ومن ذلــك فى وصــف :

14 ــ أبــى جعفر بن فركون (14)

شيخ الجماعة وقاضيها ، ومنفذ الاحكام وممضيها ، وشائم سيوفها الماضية ومنتضيها . كان ــ رحمه الله ــ لجا لا يساجل موجه ، وفرقدا لا

---

14) هو الشيخ الفقيه ابو جعفر احمد بن محمد بن احمد بن محمد ابن احمد القرشى ، احد اعلام الفقهاء بالاندلس ، طالما اسند اليه منصب القضاء فنهض باعبائه الجسام . عرف بحسن المجالسة ، وطيب المحاضرة ، دقيق النظر ، مشارا اليه بالعدالة والنزاهة والوقار ، مشهورا برحابة الصدر وحلاوة الدعابة « طال يوما بين يديه قعود رجل اسمه احمد بن معاوية ، دعا اليه فى حق وقع الفصل فيه ، فاستأذنه فى الذهاب ، فقال : يــا سيدى ! ينصرف احمد ؟ فقال : لا ينصرف ! فاقام ذلك الرجل وجلا حتى نبه على أن القاضى انما قصد التورية » . تولى القضاء بعدة مدن ، منها رندة ، ومالقة والمرية ، ولما التحق بغرناطة استمر قضاؤه بها مع الخطابة ، وذلك حتى اول عصر السلطان ابى الوليد اسماعيل بن الاحمــر . ولد ــ رحمه الله ــ عام 649 هـ ، وتوفى فى 16 ذى القعــدة عــام 629 هـ .
راجع : ابو الحسن النباهى المالقى فى « المرقبة العليا » ص 138 ــ 139 ط. بيــــــروت .

تتعاطى أوجه . تقدم لذاته ونفسه على أبناء جنسه ، وأربى يومه على أمسه . فهذر هدرة البازل (15) وتقدم فى استنباط الاحكام ومعرفة النوازل (78 . أ) الى وقار تود رضوى حناصته ، وصدر تحسد الارض العريضة ساحته ، ونادرة يدعوها فلا تتوقف ، ويلقى عصاها فتتلقف . وكان له فى الادب مشاركة ، وفى فريضة النظم حصة مباركة .

ومن ذلك فى وصف :

15 ــ أبى جعفر بن أبى جبل

قد تثنى عليه الخناصر ، وصدر لا يحصر فضائله حاصر . وقاض يريش سهام الاحكام ويبريها ، ويزيل بنظره الشبه التى تعتريها ، ويطبق مقاصد الفصل بذهنه الذلق النصل فيفريها . تولى الاقطار فازدانت ، وتقلد الاحكام فلاحت المعدلة وبانت ، وظهرت الحقوق الشرعية لاهلها حيث كانت .

وأما الادب فكان ــ رحمه الله ــ سابق حلبة زمانه ومجتليها ومتناول رايته ومتوليها ، وان كان لغير فن الادب مصروفا ، وبالعلوم الشرعية معروفا .

---

15)ــ البازل . يقال . رجل بازل ، اى فيه شدة ، وله خبرة ، ويقولون : « رمى باشهب بازل » . اى بامر صعب .

ومن ذلـك فى وصـف :

16 ــ أبى بكر ابن شيرين * رحمه الله (16)

خاتمة المحسنين ، وقدوة الفصحاء اللسنين . قريع بيت (78 . ب) زاحم النجوم بكاهله ، وورد من المجد أعذب مناهله . ملأ العيون هديا وسمتا ، وسلك من الوقار طريقة لا ترى عوجا ولا أمتا (17) . فمـا

---

16) هو الشيخ محمد بن احمد بن محمد بن أحمد بن احمد بن احمد الجذامى المعروف بابن شيرين ، ولد حوالى سنة 600 هـ، بمدينة سبتة ، التى كان قد انتقل اليها أبوه عقب سقوط اشبيلية فى أيدى الاسبان ابان حروب الاسترداد ، اذ اصله من شلب من كورة باجة باشبيلية . تولى الكتابة السلطانية فى غرناطة أواخر عام 605 هـ ، ثم تقلد منصب القضاء بكثير من الجهات بالاندلس . « وكان ــ رحمه الله ــ فريد دهره فى حسن السمت ، وجمال الرواء ، وبراعة الخط ، وطيـب المجالسة ، من أهل الفضل والدين والعدالة ، غاية فى حسن العهد ومجاملة العشرة . اشد الناس اقتدارا على نظم الشعر والكسب الرائق » ، ومن مشايخه جده لامه الاستاذ أبو بكر بن عبيدة الاشبيلى ، والاستاذ أبو اسحاق الغافقى . وروى عن كثيرين من أعلام العصر فمنهم قاضى الجماعة الشيخ الامام ابـو اسحاق ابراهيم بن عبد الرفيع وغيره ، وذلك ابان رحلته الى تونس ، حيـث لقـى هذا العالم الكبيـر .

من شعـره فى وصف غرناطـة :

رعـى اللـه مـن غرناطة متبـؤا ... يسـر كئيبـا ، أو يجيـر طريـدا

تبرم منها صاحبـى بعـد مـا رأى ... مسارحهـا بالبـرد عـدن جليـدا

هـى الثغر صان اللـه من اهلـت ... وما خيـر ثغـر لا يكـون بـرودا

توفى فى اليوم الثالث من شعبان عام 747 هـ ، ولم يترك خلفا من الذكور . راجع : النباهـى فى « المرقبـة العليـا » ص 153 .

17) اقتباسا من قوله تعالى « ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا . لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » سورة طه آية . 105 ــ 107 .

شئت من فضل ذات ، وبراعة أدوات ، ان خط نزل عن درجته وانحط ، وان نظم ونثر ، تتبع البلغاء ذلك الاثر . وان تكلم انصت الحفل لسماعه ، وشرح لدرره النفيسة ــ صدف اسماعه .

وفد على الاندلس ــ عند كاينة سبتة (18) . وقد طوحت النوى برجاله ، وظعن عن ربعه لتوالى امحاله ، (وبهـا) مصرف الدولة فـى بلادها المستولى على طارفها وتلادها ، مغرس الادب ومقيلها ، وناعش العثرات ومقيلها ، أبو عبد الله بن الحكيم ــ قدس الله صداه ، وسقى منتداه ــ فاهتز لقدومه اهتزاز الصارم ، وتلقاه تلقى الاكارم ، وانهض الى الغاية آماله وألقى له قبل السواده ماله ، ونظمه فى سمت الكتاب ، وأسلاه عن أعمال الاقتاد والاقتاب ، ولم يزل زمامه يتأكد فى هذه الدول ، وتربى له ولايته منها على الاول . فتصرف فى القضاء بجهاتها ، وقادته

---

18) هى احدى المدن الساحبية شمال المغرب وضمن ترابه ، ولكنها تتبع حاليـا اسبانيا لها تاريخها على مر العصور الوسطى الاسلامية ، من حيث كونها قاعدة سياسة هامة ، وقد اتخذها الامويون مركزا حربيا رئيسيا ، فكانوا يصدون منها تيار الفاطميين ، وفى القرن الثالث عشر الميلادى استولت عليها أسرة « بنى العزفى » الاندلسية ، ثم بقيت تحت حكم بنى الاحمر أمراء غرناطة فترة مـن الوقت ، ثم استولى عليها البرتغال فى القرن الخامس عشر ، واخيرا ضمهـا الاسبان اليهم ، وما تزال تحت حكمهم حتى اليوم . واليها ينتسب العالـم « مرانة السبتـى » من اعلم الناس بالحساب والهندسة والفرائض والتاليف ، ومن تلامذته « ابن مرانة الفرضى » الحاسب ، يقولون انه كان من اهل بلده ، وكان المعتمد بن عباد يقول « اشتهيت أن يكون عندى من اهل سبتة ثلاثة نفر . ابن غازى الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرانة الفرضى » .

اما الكاينة التى يشير اليها المؤلف فقد حدثت عام 605 هـ ، وسنعود الى الحديث عنها فى مناسبة اخرى قادمة .

راجع : الحموى فى « معجم البلدان » جـ 10 ص 182 ــ 183 ط. القاهـرة 1906 م .

(79 . أ) العناية هاك وهاتها ، فجدد عهد حكامها العدول من سلفه وقضاتها .

وله فى الادب الذى تحلت بقلائده اللبات والنحور ، وقصرت عن جواهره البحور وسير ذلك ـ فى تضاعيف هذا المجموع ـ ما يشهد بسعة ذرعه ، وبخبر بكرم عنصره ، وطيب نبعه .

ومن ذلك فى وصف :

17 ـ أبى القاسم الخضر بن أبى العافية (19) رحمه الله

فارس ميدان البيان ، وليس الخبر كالعيان ، حامل لواء الاحسان ، لاهل هذا اللسان ، رفل فى حلل البدائع فسحب أذيالها ، وشعشع أكواس العجائب فأدار جريالها ، (20) واقتحم على الفحول أغيالها ، وطمح الى الغاية البعيدة فنالها وتذوكرت المخترعات فقال . أنا لها . عكف واجتهد ، وبرز الى مقارعة المشكلات وشهد ، فعلم وحصل ، وبلغ الغاية وتوصل .

---

19) هو الشيخ القاضى الحضرى بن احمد بن ابى العافية الانصارى ، وكنيته ابو القاسم ، ويعرف بابن ابى العافية ، من اهل غرناطة . اشتهر من بين اعلام القضاء ، معروفا بفتاواه وحل المعضلات ، واستخراج النصوص الغريبة ، ونسخه لها بيده ، وتقييده الكثير من المسائل كما كان مضطلعا بنوازل الاحكام، وهو ـ الى ذلك ـ من ائمة النحو فى الاندلس . وكان مقصد القضاة ، ومحل استشارتهم فى المشكلات ، بارعا فى الادب ، ظريفا فى الخط ، ممارسا للشعر . توفى ـ رحمه الله ـ بمدينة برجة ، ولكن دفن فى غرناطة ، عند باب البيرة ، الذى ما يزال قائما حتى اليوم من ابواب العاصمة ، قرب ميدان النصر الآن ، وذلك عصر يوم الاربعاء آخر ربيع الاول من عام 745 هـ ، فى عهد السلطان ابى الحجاج يوسف الاول ابن الاحمر (773 ـ 755 هـ = 1333 ـ 1354 م) كما كان معاصرا للمؤلف (ابن الخطيب) .
راجع النباهى فى « المرقبة العليا » ص 149 ـ 152 .

20) الجرية فى الاصل : حوصلة الطائر .

وتولى القضاء فاضطلع بأحكام الشرع وبرع فى معرفة الاصل والفرع ، وتميز فى المسائل بطول الباع (79 : ب) وسعة الذراع فأصبح صدر مصره ، وغرة فى صفحة دهـــره .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

18 ــ أبى اسحاق بن جابر الوادى آشى (21)

فحل هادر ، وبليغ ــ على الكلام ــ قادر . اهتز له العصر علـــى رجاحة أطواده ، وظهر له الفضل على كثرة حُساده . ولما جلى فى منصة الابداع بنات فكره ، وحاسن عقائل الحى الحلال بفكره ، طولب باثبات تلك البنوة ، وقيل . هذا الجمل وهذه الكوة ، فخاصم حتى أظهر الحق ، وتمم فاستحق ، وذيل ووطى ، وتجاوز الغاية البعيدة وتخطى .

ولم تزل بدائعه فى اشتهار ، وروضات آدابه أزهار ، وتصرف فى الكتابة فكان صدر ناديها ، وقلادة هاديها . وولى خطة القضاء فى هـــذه المدة ، وقد ناهز اكتماله وبلغ أشده ، وحسنت سيرته ، وأثنت عليه بكل عمل جيرته ، وله نفس الى العلم مرتاحة ، وخواطر تنتجع منه كل ساحة ، هام فيه بكل مستحيل وجائز ، وكلف حتى بعلوم العجائز وشعره جزل الاسلوب ، وعذب (80 . أ) فى الافواه والقلوب .

---

21) النسبة الى « وادى آش » او « وادياش » كما ترسمها بعض المخطوطات ، احدى المدن الاندلسية ، تقع شمال شرق غرناطة ، على نهر فردس ، وتبعد عن العاصمة بنحو خمسة وخمسين كيلومترا ، وللمدينة تاريخها عبر العصر الاسلامى ، وما تزال قائمة حتى اليـــوم .

راجع: الحميرى فى «الروض المعطار» ص 192 ــ 193 نشر ليفى بروفنسال، ط. لنـــــدن 1938 .

ومن ذلــك فى وصــف :

19 ــ أبى عبد الله بن غالب الطريفى

طويل القادمة والخافية (22) محكم لبناء البيت وتأسيس القافية . صاحب طبع معين ، وآت من القصائد بحــور عين . عكف على النظــم فى جيله ، عكوف الراهب على انجيله . ولم يزل يفوق الى كل غرض سهامه ، ويستسقى صيبه وجهامه ، ويهز ماضيه وكهامه ، حتى اشتهرت أبياته ، وحفظت بديهياته ورورياته . وتصرف فى القضاء فاستقام أوده ، وانطلقت فى الحكــم يــده .

وكانت له وفادات على ملوك هذه الدول ، فى العصور الاول ، نظم فيها ومدح ، وقدح من قريحته مــا قــدح .

وتوفى ببلده عن سن عالية ، وزمانة متوالية . ولما شرع المؤلف ــ رضى الله عنه ــ فى انشاء هذا الكتاب بعث اليه بعض أهل بلده ــ ممن عنى بحفظ الطروس ، واحيائها بعد الدروس ــ (80 . ب) بمهارق (23) أكل الدهر منها ما تجسم ، وانتهبها الدهر ما شاء وتقسم ، فأثبت له ما ينظــر فى محله ، ان شــاء اللــــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

20 ــ أبى القاسم المعروف بابن الجمالة

صدر فى القضاء ، وينبوع للخلال المرتضاة ، وطائع لسيوف الكلم المــنتضــــــاة .

---

22) القوادم والخوافى . أوصاف تتعلق بريش الطائر ، فالقوادم هى الريشات فى مقدم الجناح ، وهى عادة تكون كبار الريش ، والخوافى صغاره ، ومكانها تحــت القوادم ، التعبير هنا مستعار للكناية .

23) المهــارق : جمع مهرق ، وهو الصحيفــة .

نشأ ببلده رندة (24) ــ حرسها الله ــ صدر سكانها ، وفضيلة مكانها وزمانها ، وعين أعيانها ، وحامل لواء ببانها . ولم يزل يسلك من الفضل على السنن المأثور ، ويركض جياد المنثور ، فأغرب الغرب بآدابه ، وتعلق الاحسان بأهدابه .

وتولى الاحكام الشرعية ، فأجال قداحها ، وقرر مكروهها ومباحها ، وتناول المسائل فأبان صباحها ، حتى خلصت فيه السرائر ، وعقدت على حبه الضمائر ، وطابت به الخواطر ، وتضوع من ثنائه المسك العاطر . وقعد لهذا العهد الاكبر ، وحوم عليه الاجل المنتظر ، فتعطلت لضعفه تلك النسوق (81 .) ، وعدم ــ لانعدام بيانه ــ الدر المنسوق .

---

24) تقع مدينة رندة غرب مالقة ، وقد كانت من أهم القواعد الاندلسية ، كما كانت من أهم مدن غرناطة ، وتعتبر الحصن الذى يحمى مالقة من ناحية الغرب ، ولذلك لما سقطت رندة فى يد الاسبان فى أبريل 1485 م (جمادى الاولى 890 هـ) أضحى الطريق سهلا لاستيلاء القشتاليين على مالقة ، فقد سقطت هذه الاخيرة بعد قليل فى أيديهم (اغسطس 1487 م) = (شعبان 892 هـ) . وتشرف المدينة على منطقة عالية من الربى ، ويشقها من وسطها وادى ليبين ، وقد وصف ابن بطوطة رندة حينما زار الاندلس عام 1350 م بقوله :

« وهى من امنع معاقل المسلمين ، واجملها وصفا » ويبلغ عدد سكانها حاليا 50 الف نسمة ، فهى مدينة متوسطة الحجم ، يغلب عليها طابع القدم والبساطة ، وتبدو فى مسحة اندلسية واضحة ، من أهم الآثار العربية بها حتى اليوم أطلال القصبة الشهيرة ، والقنطرة عند مدخل المدينة الغربى ، وهى ذات عقد واحد بالغ الارتفاع ، ثم الحمامات العربية وهى أطلال دارسة ، تقع بمقربة من الكنيسة العظمى ، ومن الآثار كذلك « المنارة » فى نهاية المدينة ، ويبلغ طولها حوالى 12 مترا ، وقصر الامير أبى مالك ، ويقع فى طرف المدينة الجنوبى ، وباب المقابر فى حى « فرانسيسكو » ، والى هذه المدينة ينسب الفقيه ابن عباد الرندى .

راجع : ما كتبه « ليفى بروفنسال » عن هذه المدينة فى Enc. 151f- 111,P. 1254 ثم مجلة الاندلس ، العدد 472 (1944) .

ومن ذلـك فى وصـف :

21 ـ أبـى الحجـاج المتشاغرى

حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتوبة الزمان الجم الذنوب ، مـا شئت من بشر يتألق ، وأدب تتعطر به النسمات وتتخلق ، ونفس كريمة الشمائل والضرائب ، وقريحة يقذف بحرها بماء الغرائب . الى خشية لله تعالى تحول بين القلوب وقرارها ومراقبة تثنى النفوس (عـن) اغترارها . ولسان يبوح بأشواقه ، وجفن يسخو بدرر آماقه ، وحرص على لقاء كل ذى علم وأدب ، وبحث عمن يمت ـ الى أهل الديانة والعبادة ـ بسبـــب .

سبق بقطره الحلبة ، ففرع من الادب الهضبة ، ورفع الراية ، وبلغ الغاية . فطارت قصائده كل المطار ، وتغنى بها راكب الفلـك وحادى القطار . وتقلد خطة القضاء ببلده ، وانتهت اليه رياسة الاحكام بيـن أهله وولده ، فوضحت المذاهب بفضل مذهبه وحسن مقصده . ولـه شيمة فى الوفاء تعلم منها الآس ، ومؤانسة عذبه لا تستطيعها الاكواس .

ومن ذلـك فى وصـف :

22 ـ أبى محمد عبد الحق بن عطية (25)

قريع بيت أصيل ، وصدر معرفة وتحصيل . نشأ على العفاف ،

---

25) هو الشيخ القاضى عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربـى . نشأ بغرناطة ، وتولى القضاء بالمدن الاندلسية ، واشتهر بيته بالعلم والفضل والكرم ، وعرف هو بالتبريز فى الاحكام والحديث والتفسير ، كما كان بارعا فى الادب والشعر ، لغويا ، مستخرجا للنصوص ، مقيدا لها . له تفسيره القرآنى المشهور « الوجيز فى التفسير » ، يقولون : انه من احسن التآليف وأبـداع التصانيف فى هذا المضمار ، وتقوم بطبعه الآن وزارة الاوقاف المغربية ، ونشرت منه بعض أجزائـه . كانت ولادته عـام 481 هـ ، وتوفى رحمه اللـه يـوم 25 رمضان عام 541 هـ .
راجع : « المرتبة العليا » للنباهـى ، ص 109 .

وتبلغ بالكفاف ، وعمل على شاكلة من له من كرام الاسلاف . الـى نفس ملابسها الحيا والوقار ، وأدب ينم عنه أخلاقه كما تنم تحت الزجاجة العقار ، وخط تهيم بمرقومه الابصار ، وبلاغة هذبها الاختصار ، ومحاضرة تتجلى بها الليالـى القصـار .

تقدم بقطره الى الخطابة والامامة ، أطهر من ماء الغمامة وأطيب من بنت الكمامة ، ففرع ــ على حداثة السن ــ أعوادها ، وبلغ آمادها ، وأصبح من الصدور فؤادها ، ومن العيون سوادها ولا ينكر العذب فى ينبوعه ، والنور فى مشرق طلوعه . وقد أثبت من أدبه ، ما يعرب عن مذهبـــه .

ومن ذلـك فى وصـف :

23 ــ أبـى القاسم بـن عيسى

قريع فضل ومجادة ، وضارب فى هدف الآداب بسهم اجادة .

كان أبوه ــ رحمه الله ــ خطيب مالقة (26) صدر فضلائهـا ، وواسطة (82 .) علائها . ونشأ هذا الفاضل ــ رحمه الله ــ سالكـا فى العفاف على مسلكه ، ومتنقلا فى درجات فلكه .

---

26) هى مدينة ساحلية على البحر الابيض المتوسط ، جنوب شرق الاندلس ، يرجع تأسيسها الى الفنيقيين عام 1200 ق. م. ، كانت تشتهر قديما بالاسماك المملحة ، وتتوفر المدينة حاليا على أجود انواع الفواكه ، ولها شهرة فى صناعة الفخار . ولقد كانت عاصمة الحموديين الادارسة زمن ملوك الطوائف والى هذا يشير لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه « معيار الاختيار ، فى ذكر المعيار والديار » فيقول : « كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان اكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفتة غير خاسرة » ، كما كان بنو الاحمر يعتبرونهاالعاصمة الثانية بعد غرناطة .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » جـ 1 ص 186 ، تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد ط. القاهـــرة .

تولى القضاء لاول أمره ، على حداثة سنة وجدة عمره . ثم دعى للكتابة فتنقل الى الحضرة (14) وتحول ، وعزم على المقام بها وعول ، فأجال براعته ، وشهر براعته . ولما عضه الاغتراب ، وباين وطنه كما باين السيف القراب ، شاقه الاهل والاتراب ، والماء والتراب ، وحن الى دوحه الذى به تأود ، وكبرت عليه الخدمة وصعب على الانسان ما لم يعود . فرغب فى الانصراف الى بلده ، واحتمال أهله وولده . وهو اليوم قاضى جهاتها الغربية ، ومنفذ أحكامها الشرعية .

وله أدب وخط ، وبحر من المعرفة ليس له شط . وقد أثبت من شعره ما يشيد بذكره .

ومن ذلك فى وصف :

24 ـ أبى زيد خالد بن خالد

فائز من الابداع بكل مطلوب ، ومشتمل اسماع وقلوب ، (82 . ب) وفى البداوة حسن غير مجلوب (28) . قدح قريحته الوقادة ، وراض صعب الكلام فأعطاه المقادة . فتألق بذلك الافق تألق البرق ، وطلع بتلك الجهة الشرقية ولا ينكر النور على الشرق . فشرف فى قومه ، وأصبح فيه امسه منافسا ليومه . الى بلاغه تتحلى بها صفحات المهارق، وعفاف حتى عن الخيال الطارق .

ورحل الى هذا العهد القريب ، وقد أصبح بحسن ضرايبه عديم الضرايب ، فاقتحم فرصة المجاز (29) ، الى مثابة الحجاز ،فقضى وطره

---

27) يعنى بالحضرة : غرناطة العاصمة النصرية .

28) عجز بيت يروى هكذا :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

29) يعنى انه عبر مضيق جبل طارق .

من تلك المشاهد وتبرك بلقاء أهلها من عالم وزاهد . وقفل وقد دون رحلة سفره ، وزها بها زهو الجفن بزهره ، والخد بخفره .

واجتاز بالبلاد الموحدية ، فدعته الى خدمة بابها ، وقلدته رياسة كتابها . فأينع روضه واثمر ، وحل بهالتها فأضاء وأبدر ، فلم يكن الا كلا وأكثر . حتى جذبه الشوق برسنه ، وطار به الوجد الى وطنه . فأسرع اللحاق ، وأثار على النور المحاق ، وعلى ذلك فقد ولى للحين (83 .) ببلدته قضاءها ، وتقلد انفاذ الاحكام وامضاءها ، رحمه الله .

ومن ذلك فى وصف :

25 ـ أبى عبد الله بن عبدة

مجموع أدوات ، وفارس قلم ودواة . وشيخ تقع العين منه على صورة طريفة وهيئة ظريفة ، وقريع بيت نبيه ، وأصالة ليس لها من شبيه . وله خط حسن وبلاغة ولسن . تصرف فى القضاء فما ذوى لسيرته نور ، ولا نسب له حليف ولا جور .

ومن ذلك فى وصف :

26 ـ أبى زكريا القباعى

شاعر ، اذا نظم أجاد ، وان استسقى طبعه جاد . الى ديانة سابغة الاذيال ، واخلاق معتقة الجريال (30) ، ومعان الطف من طيف الخيال . ولم أقف من كلامه الا على قصيدة ، مبدية فى الاحسان معيدة ، يخاطب بها الوزير أبا بكر بن الحكيم (31) .

---

30) الجريـة : فى الاصل حوصلة الطائر ، وربما عنى هنا وعاء المسك فى جسم الغزال .

31) سيفرد له ترجمة خاصة بعد قليل .

ومن ذلــك فى وصــف :

27 ــ أبــى جعفــر السياســى

حسن الاغراض ، يقى الجواهر من مخالطة الاعراض ، وأدب غض كزهر الرياض ، ومعان كمن فيها الابداع (83 . ب) كمون السحر فى الجفون المراض وتقدم للقضاء ببعض تلك الجهات . فأقام رسمه ، وانفذ حكمه ، بنزاهة مأثورة ، وسيرة مشكــورة .

ومن ذلــك فى وصــف :

28 ــ أبى جعفر بن عبد الحــق

مجموع فضائل ، وكامل لم يدع مقالا لقائل . ان ذكرت المعارف فهى من حلابه ، أو تليت سورة السور كان ذكره أم كتابه .

قعد ببلده يدرس العلــم ويجيل قداحه ، ويدير أكواس البيــان ويشعشع راحة فأصبح به غرة ، وبلبل عصره ودره . الى وقار تحسد العضاب سكونه ، وتهوى أن تكونه . واقناع بحسب كل سائل ، ومقيم من المشكلات كل مائل . وأدب لا تشح رهامه (32) ولا تتعدى الغرض سهامه ، صدر معظمه فى دول درسه ، واجتناه ثمرة العلم من غرسه ، على جهة التعليم والتدريب ، لمنتحلى البيان والغريب .

---

32) الــرهــام : ج رهمة بكسر فسكون ، المطر الخفيف الدائم .

ومن ذلـك فى وصـف :

29 ـ الحكيم المفرد أبى عثمان بن ليون ❋

مجتهد مشمر ، منقبض عن الناس متغمر . قصر ـ على نظر العلم ـ أوقاته ، وتبلغ بالقليل بغاته . وعكف على التقييد والتدوين (84 . أ) ، واكتسب من الامهات كل ذخر ثمين ، وهلم حـرا ، فقد اشتهر بفوده صبح المشيب ، ونضا برده الزمن القشيب . وما فتر عن مواصلة اجتهاد ، وايثار أرقه وسهاده ، ومال الى صناعة الطب فدون فيها ، وشارك منتحليها . وجعلها مـادة حاله ، ومحط رحاله .

وله نظم حسن ، وعارضة ولسن ، نظم به العلوم ودون ، وتقلد فى شتى المآخذ وتلون . وبآخره فهو روضة انيقة ، وخميلة وحديقة ، وضارب بسهم فى كل طريقة . وقد أثبت من شعره يسيرا ، جعلتـه للمحاسن اكسيـرا (33) .

❋ هو الشيخ أبو عثمان سعيد بن أحمد بن ليون ، أحد شيوخ المؤلف ، كان ميالا الى اختصار الكتب ، وصفه المقرى بقوله : « . . وتواليفه تزيد على المائة ، وقد وقفت منها بالمغرب على اكثر من عشرين » ، وقد أورد له مجموعة كبيرة من مقطعاته الشعريـة .

انظر : المقرى فى « النفح » حـ 8 ص 58 ، ونيل الابتهاج ، حـ 5 : 1 (ط. فاس) ، والكتيبة الكامنة ، ص 86 ، 87 (بيروت 1963) .

33) الاكسير : فى الاصل مادة تلقى على الفضة فتتحول الى ذهب خالص ، وهو من الخرافات ، ولكن فى العلم الحديث يعنى الاكسير « مادة الحياة وسرها » لاى شـيء عامـة .

ومن ذلــك فى وصــف :

30 ــ المكتب أبى عبد الله ابن قاسم المالقى

مجدد مرتل ، وعابر متبتل ، على ما يزلفه من صالح الاعمال ويدنيه . عكف على تعليم كتاب الله العزيز ، وشمر على قدم التبريز ، وارتضاه الوزير ابن الحكيم * أماما لصلاته ، واعتمد بجوايزه الجزيلة وصلاته . ولم يزل (84 : ب) يرفعه يضبعه (34) حتى عصف الدهــر بربعه . فضاع ضياع مصباح الصباح ، ولعبت به الايام كما لعبت بالهشيم أيدى الرياح . وتقلبت به أيدى الزمان ، واحوجت الثمانون سمعه الــى ترجمــان (35) .

وله أدب محكم القوى ، منيع الهضبات والصوى (36) .

---

34) القصد من التعبير . الاشادة بالذكر عاليــا .

35) اقتباسا من قول الشاعر :

ان الثمــانيــــن ــ وبلغتهــــــا قــد أحوجت سمعى الــى ترجمان

والتعبير كناية عن بلوغ المترجم له مرحلة متأخرة من العمر .

36) الصوى : ما يوضع من احجار كدليل بالطريق .

* سنفى لهذا الوزير ترجمة ضافيــة ، وذلك عند حديث المؤلف عن « الخطيب أى عبد الله بن رشيــد » .

ومن ذلـك فى وصـف :

31 ـ ابـن عبد الله بن الضايغ
مـن أهل المريـة (37)

بحر معرفة لا يغيض ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويفيض . نشأ من بلاده مشمرا عن ساعد اجتهاده ، وسائر فى فن العلم ووهاده ،

---

37) المرية . مدينة كبيرة جنوب شرق الاندلس تعرف فى الاسبانية باسم Almaria وهى من أجمل الثغور والمدن الاندلسية ، وعاصمة الولاية المسماة باسمها ، يبلغ تعداد سكانها حوالى 83.000 نسمة ، وأهم صادراتها الحديد والرصاص والفاكهة ، وكانت فى العهد الاسلامى من أهم ثغور الاندلس الجنوبية ، ولهـا أصالتها التجارية ، فقد ذكر ابن الخطيب انه كانت تقطنها على أيامه جالية أجنبية من النصارى الاسبان وغيرهم ، وكانت مهنة معظمهم التجارة استيـرادا وتصدير ، وترجع شهرتها فى هذا الى صناعة الحلل الحريرية الموشاة، وقد أعانها موقعها البحرى على تصدير هذه الصناعة الى الخارج بواسطة السفن ، والى الداخل بواسطة القوافل البرية وقد ذكر « المقرى » فى روايته عن كتاب « مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية » لابن خاتمة الانصارى أحد أبنائها ـ انه كانت بالمرية على عهده 800 نول لطرز الحرير ، و 100 للحلل النفسية والديباج وامثال هذا العدد مكرر لانواع أخرى من هذه الصناعة ، كالستر المكللة وغيرها . كما ذكر عن نفس المصدر أنه كانت تصنع بالمرية صنوف متنوعة مـن آلات الحديد والنحاس واشكال من الزجاج ، وكلها مما لا يكاد يوصف ، ثم أضـاف « ابن خاتمة » قائلا . انه لم يكن فى بلاد الاندلس أكثر مالا من أهل المرية ، ولا أعظم متاجر ولا أوفر ذخائر ، وانه كانت بها دار للصناعة .

ولقد بنى المدينة أصلا الخليفة الاموى عبد الرحمن الثالث « الناصر » عام 344 هـ 955 م ، وسقطت فى يد الاسبان ابان حروب الاسترداد عام 895 هـ (1490 م). راجع . الروض المعطار للحميرى ، ص 183 ـ 184 ، وخطرة الطيف ، ضمن « مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد الاندلس والمغرب » ص 143 ، بتحقيـق د. العبادى ط. جامعة الاسكندرية 1958 ، ونفح الطيب للمقرى ج 1 ص 154، ثم ما ذكره المستشرق « زيبولد » فى دائرة المعارف الاسلامية عن وضعية هذه المدينة فى العصر العربى ج 1 ص 319 .

ومواصلا لأرقة فيه وسهاده ، حتى أينع روضه ، وفهق حوضه (38) ، وأضاءت سرجه ، وتعطر أرجه .

ولما استكمل من المعارف ما استكمل ، وبلغ ما أمل ، أخذ فى اراحة ذاته ، وشام فوارق لذاتـــه .

ثم سار فى البطالة سير الجموح ، وواصل الغبوق الصبوح (39) ، حتى قضى وطره ، وسئم بطره . وركب الفلك وخاض اللجج الحلك . واستقر (85 . أ) بمصر على النعمة العريضة بعد قضاء الفريضة ، وهو اليوم (40) بمدرستها الصالحية (41) ــ عمرها الله بذكره ــ نبيه المكانة ، معدودا فى أهل العلم والديانة . وصدرت عنه الى هذه البلاد قصيدة نبوية ، تغنى بها الحادى المطرب ، وكلف بها المصعد والمصوب، تدل على انفساح طباعه ، وامتداد باعـــه .

---

38) فهق الحوض أو الاناء : امتلأ حتى صار يتصبب ، والكناية هنا عن استكمال المترجم له لاسباب العلم والمعرفة .

39) الغبوق . العشى . والصبوح ، الغداة ، والقصد هنا . مواصلة ليله بنهاره فيما هو بصدده .

40) عصر المؤلف (ابن الخطيب) .

41) تنسب هذه المدرسة الى منشئها السلطان الايوبى من دولة الممالك البحريـة بمصر البالغ عددهم 24 سلطانا (1250 ــ 1290 م) ، وهم قسيم لمن بعدهم من المماليك البرجية ، وهؤلاء يبلغون 23 سلطانا (1382 ــ 1517 م) والجميع يرجعون أصلا الى اجناس شتى فمنهم التركى والشركسى والمغولى والايطالى والالمانى واليونانى . وقد طارت شهرة المماليك لما حققوه لمصر من قوة وثروة وسلطان ، كما يرتبط تاريخهم بصد الخطر المغولى ، وانهم أخرجوا الصليبيين من الشام ، حتى غدوا القوة العظمى دفاعا عن العالم الاسلامى يومئـــذ ، ويعتبرون فى النهاية آخر الدول المستقلة التى حكمت مصر .
راجع . تاريخ العالم العربى وحضارته ، للدكتور زيادة وآخرين . ص 215 ــ 217 ط (القاهرة الخامسة 1965 م) .

ومن ذلـك فى وصـف :

32 ـ أبى عبد الله بن الحاج البضيعة

مدد المقاصد ، آخذ للمعانى بالمراصد ، وكاتب شروط لا يساجل فى مضمارها صحة فصول ، وتوقيع فروع على أصول . وكلما طلـب بالنظم القريحة ، وأعمل فكرته الصريحة ، أجابت ولبت ؛ وتسنمت رياح بيانه وهبت . . وحفظت العامة من كلامه لقربه من افهامها ، وانتصاب غرضـه اسهامهـا .

ومن ذلـك فى وصـف :

33 ـ أبـى عبد الله بـن عصام

منتم الى حسب ومجد ، وفارع من الاصالة كل نجد ، وان نوزع فيها بخصام . وخلفه الذى رأس من بعده ، واستوفى بمرسية (85 : ب) حظ سعده حتى أتاه الاجل لوعده ، وراعه الدهر ببرقه ورعده .

وكان هذا الرجل عدلا من عدول بلده ، وذاهبا من الفضل الـى أقصى أمده لولا تهور وافرط ، وطيش تخبط فى شركه وتورط .

وله أدب ضعيف المبنى ، خال من المعنى ، كان يسهل عليه ، وينثال بين يديـــه .

ومن ذلـك فى وصـف :

34 ـ أبى جعفر بن أبـى غالب

ماطر جاد بالوابل السجم ، وشاعر افتتح بيتا فى النجم . وبليـغ قاد الكلام برسنه وايقظ طرف البلاغة من وسنه ، وطبق فصل الخطاب بلسنـــه .

كان وابن عمه ــ رحمهما الله ــ فرسى سباق ، ومديرى كأس اصطباح للادب واغتباق . غير أنه كان أشد انقباضا ، وأكثر أزورارا (42) عن الخدمة واعراضا . وابن عمه اسمح طباعا ، وافسح باعا ، واوفر صاعا ، فقد انتجع واسترفد ، وأصلح بتعريضه واقتصد ، حسبما تضمنه كتابى المسمى بـ « طرفة العصر ، فى اخبار دولة بنى نصر » .

وقد أثبت من شعر أبى جعفر (86 . أ) هذا ما يشهد باجادته ، وبنظمه فى فرسان الكلام وقادته .

ومن ذلك فى وصف :

35 ــ أبى الحسن الرقاص

سابق لا يشق غباره ، ودوح فنون لا يغب جناه (42) ولا تذبل أزهاره . تتبع الغوامض بثاقب فهمه ، وأصمى كل مشكلة بسهمه (43) فشأى حلبته وتقدمها ، وزاول المعارف وخدمها ، فترشف منها كل ريقه ، ولم يقتصر على طريقة ، وتفيأ كل حديقة ، من مجاز وحقيقة . فكلما استمطرته صاب ، أو رميت به غرضا أصاب . حتى تضوع نسيمه الهمم ، لطبيعة الشمائل والشيم .

وقد أثبت من أدبه ــ الذى خاطبنى به ــ كل عطر النفحة ، مشرق الصفحة .

---

42) الازورار . مصدر ازور ، وهو العدول والانحراف .

42) غبت الفاكهة تغب . بمعنى انها تأتى ثمارها أياما بعد أيام ، فالقصد هنا ان المترجم له لا ينقطع له انتاج .

43) اصماه السهم . أصاب منه مقتلا ، والمقصود هنا اصابة التوفيق فى شتى المشاكل المعروضة عليه ، وذلك بما يتوفر عليه الشيخ من فقه وتصرف .

ومن ذلك فى وصف :

36 ـ أبى عبد الله النجار

متقنن مشارك ، واخذ فى الادب غير تارك . برع فى الوثيقة وأحكامها وتنزيل فصولها على مقتضيات أحكامها . الى نفس جبلت على حسن الاخلاق ، وشمائل أعذب من الماء الزلال (86 . ب) فى المذاق ، وايناس يسرى فى الارواح سرى الراح ، ومذاكرة اشهى من العذب القراح .

وهو ـ الآن ـ صدر فى عدول بلده ، وسابق تقف الحلبة منهم دون أمره .

ومن ذلك فى وصف :

37 ـ أبى عبد الله الزيان الوقشى

صنع اليدين ، فايز من سهام الضراب بالفريضة والدين . اذا زين الطروس (44) وقطر أصباغها ، وأحكم فى قوالب السحر افراغها ، حسر قدح تلوينها ، وحقرت الرياض بساتينها . الى خط يقف عنده الطرف ، وأدب كالروض راق منه المجتلى وتأرج العرف (45) ونفس أرق من نسيم الفجر ، واخلاق أعذب من الوصل فى عقب الهجر .

وقد أثبت من كلامه ما تعذب موارده ، وتروق شوارده .

---

(44) الطروس : ج طرس بكسر فسكون ، وهو الصحيفة .

(45) العرف . الرائحة عموما ، والاستعمال الاكثر للرائحة الطيبة ، فتأرج العرف هنا ، انتشرت رائحته الطيبة .

ومن ذلك فى وصف :

38 ـ أبى القاسم بن رضوان

أديب أحسن ما شاء ، وفتح قليب قلبه فملأ الدلو بل الرشاء ، وعانى فى حداثته الشعر والانشاء . وله ببلده بيت معمور ، يفضل وأمانة ، ومجد وديانة ونشأ هذا الفاضل على أتم العفاف والصون ، فما مال الى فساد بعد الكون . وله خط بارع ، وفهم الى الغوامض مسارع ، فقد أثبت من كلامه ، ونفثات أقلامه ، كل محكم العقود ، زارا بابنة العنقود .

ومن ذلك فى وصف :

39 ـ أبى جعفر بن صاحب الصلات

محسن لا ينازع احسانه ، وبليغ لا يساجل لسانه ، وذكى يتوقد فهمه ، ومجيد يصيب كل غرض بسهمه . فما شئت من ادراك ماضية نصوله ، وذكاء علت فروعه وطابت أصوله ، (87 : أ) وطرف كالروض لما اعتدلت فصوله ، وأدب شدت معاقده ، فلا يطمع فيه ناقده .

جالسته فى بعض التوجيهات الى مالقة ـ حرسها الله ـ فرضت روضا تعطر وتأرج ، ومر به نسيم دارين (46) يتأرج . فلما ظفرت بجناه الطيب ، وقعدت تحت عمامة الصيب ، تركت خبزه لعيانه ، وخطبت نبذة من بيانه ، فأنشدنى ما يذكر .

---

46) دارين . موضع بالبحرين فى الخليج العربى ، يجلب اليه السمك من الهند ، وينسب اليها .

ومن ذلك فى وصف :

40 ـ أبى بكر بن مقاتل

تابعة مالقية ، وخلف ممن ترك الادباء وبقية ، ومغربى الوطن اخلاقه مشرقية . اشتهر بالاجادة بين أصحابه ، وتألق البارق خلال سحابه حتى اشتهر احسانه ، ومضى عند الشعر لسانه . ثم أزمع الرحيل الى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المفرق ، وسهم القدر لا يخطى ، ومن استحثه الاجل لا يبطى . ولما توسطت السفينة اللجج ، وقارعت الثبج ، هال عليها البحر فسقاها كأس الحمام ، وأولدها قبل التمام . وكان رحمه الله فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على نوره سوادها ، من الطلبة والادباء ، وابناء السراة الحسناء . أصبح كل منهم مطيعا ، لداعى الردى سميعا ، وأحبوا فرادى وماتوا جميعا . فملأوا القلوب حزنا ، وأرسلوا العبرات مزنا ، وكان البحر لما طمس سبل خلاصها وسدها ، وأهال هضبة سفينتهم وهدها ، غار لدررهم النفيسة فاستردها .

والفقيه أبو بكر ـ مع اكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره ـ لم أظفر من أدبه الا باليسير التافه ، بعد وداعه وانصرافه .

ومن ذلك فى وصف :

41 ـ المؤذن أبى الحجاج بن مرزوق

(88 . أ) خير استبق الى داعى الفلاح استباقا ، وانتهى الى القوم الذين هم فى الآخرة أطول أعناقا ، وان كانوا فى الدنيا أضيق أرزاقا . مردد أذكار ، ومسبح أسحار ، وعامر مئذنة ومنار . كان

ببلده رندة ــ حرسها الله ــ مؤذنا بجامعها ، ومؤقتا بام صوامعها (47) ومعتبرا فيمن كان بها من فضلاء السدنة (48) وممن يشمله قولـه « فكانما قرب بدنـه » ، وكان له لسان مخيف ، وشعر سخيف ، توشح بحليته ، وجعله وسيلة كربتـه .

ومن ذلـك فى وصـف :

42 ــ أبى الحسن ابـن الجياب (49)

صدر الصدور الجلة ، وعلم أعلام هذه الملة ، وشيخ الكتابـة وبانيها ، وهاصر أفنان البدايع وجانيها . اعتمدته الرياسة فناى بها على ذراعه ، واستعانت بـه السياسة فدارت أفلاكها على شباة يراعه . فتفيأ للعناية ظلا ظليلا ، وتعاقبت الدول فم تـر بـه بديلا .

---

47) يرمى المؤلف الى ان المترجم له كان مؤذنا بالمسجد الكبير الجامع بالمدينة .

48) اصل السدانة . خدمة الكعبة او بيوت العبادة ، والمراد هنا انه كان احد حجاب وخدمة المسجـد .

49) هو رئيس الديوان ، العلامة الاديب ، على بن محمد بن سليمان بن على بن سليمان ابن الحسن الغرناطى الانصارى ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابـن الجياب . ولد بغرناطة فى جمادى الاول 573 هـ (نوفمبر ــ ديسمبر 1174 م) . درس العلم والادب على فطاحل العلماء وكبار الادباء ممن حفل بهم عصره ، فمن مشايخه أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفى ، ومن تلامذته المبرزين المشهورين المؤلف نفسه (ابن الخطيب) . ويعتبر هذا الرئيس فى طليعة الكتاب والشعراء الذين حفل بهم بلاط بنى الاحمر ، وخاصة السلطان أبا الحجاج يوسـف الاول (733 ــ 755 هـ) . ولم يقتصر شعره على المديح شان بقية شعراء الملوك ، وانما تجاوزه الى فنون الشعر الاخرى ، فاجاد التصرف فى مختلف المناسبات ، كما اسهم بحظ وافر فى الاحاجى الشعرية ، حتى قال عنه تلميذه ابن الخطيب . « ولم ار احدا أحكم الالغاز مثل ما أحكمه ابن الجياب » . وقد نوه بالمترجم له فى الميدان الشعرى ــ بعد ابن الخطيب ــ ابن حجر العسقلانـى فى كتابه . « الـدرر الكامنة ، فى شعراء المائة الثامنة » مستشهدا ببعض اشعـاره ،

من ندب (50) ــ على علوه ــ متواضع ، وجد لثدى المعارف راضع، لا تمر مذاكرة فى فن الاوله فيه التبريز ، ولا تعرض جواهر الكلام على محكات (88 . ب) الافهام الا وكلامه الابريز (51) . حتى أصبح الدهر راوى احسانه ، وناطقا بلسانه . وغرب ذكره وشرق ، وتجاوز البحر الاخضر والخليج الازرق (52) . الى نفس هذبت الآداب شمائلها وجادت

التى أورد المقرى جزءا منها غير يسير فى « نفح الطيب » . هذا ، ولابن الجياب جولاته فى صناعة الكتابة ، ويكفى شاهدا له تلك الرسائل التى دبجها قلمه ــ على لسان سلطانه ابى الحجاج ــ الى من عاصره من ملوك المسلمين والنصارى ، وما كان يسطره من المراسيم الملكية ، تلك التى جمع منها ابن الخطيب قدرا فى رسالته المسماة « تانه من جم ، ونقطة من يم » ، كما وصفه ابن خدون بأنه « شيخ العدوتين فى النظم والنثر وسائر العلوم الادبية » ، ولكن يبدو ان ابن الجياب كان اقصر باعا فى النثر عنه فى النظم ، مما جعل المقرى يسجل عليه مثل هذا بقوله « ويظهر لى ان نظمه أعلى طبقة من نثره ، وعلى كل حال فهو لا يتكلف نظما ولا نثرا » .

تولى ابن الجياب منصب الكتابة للسلطان ابى الوليد اسماعيل ابن الاحمر ، ثم لابنه من بعده السلطان ابى عبد الله محمد الرابع، ثم لاخيه السلطان ابى الحجاج يوسف الاول ، وخلال هذه الفترة ظل يتقلب فى ديوان الانشاء حتى ظفر برياسته، وكان من زملائه وأعوانه فى الديوان الوزير عبد الله بن سعيد والد ابن الخطيب، الذى استشهد فى وقعة طريف الكبرى (741 هـ) ، فخلفه فى خدمة القصر ولده لسان الدين ، فقلده ابن الجياب منصب أمانة السر .

توفى ابن الجياب فى محنة الوباء الكبير الذى اجتاح الاندلس ضمن ما اجتاح من دول حوض البحر المتوسط ، وكانت وفاته فى 23 شوال 749 هـ (14 يناير 1349 م) ، فى العاصمة غرناطة حيث دفن بها رحمه الله .

راجع . المقرى فى « نفح الطيب » ج 7 ص 352 ــ 384 تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد ــ القاهرة 1949 م . وكذا « يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة » للمحقق ، ص 54 ــ 55 نشر لجنة البيان العربى بالقاهرة 1969 م.

(50) الندب . بتشديد النون مع الفتح وسكون الدال ، هو السريع الى الفضائل ، كما يطلق على الظريف النجيب ، والجمع منه ندوب وندباء .

(51) الابريز . الذهب الخالص .

(52) لعله يقصد بالاول . البحر المتوسط ، وبالثانى . الخليج العربى .

الرياضة خمائلها ، ومراقبة لربه ؛ وانتشاق لروح الله من مهبه . ودين لا يعجم عوده ، ولا تخلف وعوده .

ولكم ظهر علينا ــ معشر بنيه ــ شارة تجلى بها العين ، أو اشارة كما سبك اللجين ، فهى اليه منسوبة ، وفى حسناته محسوبة . فانما هى أنفس راضها بآدابه ، وأعلقها بأهدابه . وهذب طباعها ، كالشمس تلقى على النجوم شعاعها ، والصور الجميلة تترك فى الاجسام الصقيلة انطباعها (53) ، وما عسى أن أقول فى امام الائمة ، ونور الدياجى المدلهمة ! !

وقد أثبت من عيون قصائده ــ الذى علق الاحسان فى مصائده ــ كل وثيق المبنى ، كريم المجنى ، جامع بين حصافة اللفظ ولطافة المعنى .

ومن ذلك فى وصف :

43 ــ الكاتب أبى عبد الله اللوشى (54)

شاعر مفلق ، وحسيب معرق . طبق مفاصل الكلام بحسام (89 : أ) لسانه ، وقلد نحور الملوك ما يزر بجواهر السلوك من احسانه ، ونشأ

---

53) اشارة لطيفة ، ولفتة كريمة من المؤلف نحو استاذه ، واعتراف بالفضل فى صورة بلاغية رائعة .

54) نسبة الى مدينة « لوشة » وهى بالاسبانية Loja تقع على بعد 55 كم غرب غرناطة ، وكانت احدى المدن الاندلسية الشهيرة ابان الحكم الاسلامى ، وقد استولى عليها الاسبان خلال حروب الاسترداد عام 891 هـ (1486 م) قبل غرناطة بست سنوات تقريبا ، وهى الآن مدينة اسبانية متوسطة المساحة ، يقع بعض عمرانها بأعلا ربوة صخرية ، والبعض الآخر من المبانى فى منخفض الوادى ، وعلى مقربة منها بسيط فسيح من المزارع والحدائق يمتد حتى سفح الجبال القريبة منها ، ويخترق (لوشة) نهر شنيل من الشمال ، ويقدر عدد

فى حجـر الدولة النصريـة (55) راضعا ثـدى نعمائها ، ومستظـلا بسمائها ، ومفضلا على مداحها ، وحائزا المعلى من قداحها . ولسلفه بخدمتها الاختصاص القديم ، والمزية والتقويم ، والمتات الى كريم ذمامه واستقر فى يد الراعى زمامه . ونطق بالشعر قبل أن ينطق بالشعـر خده ، فأتى منه ببحر لا يعرف الجزر مـده .

وأما الطريقة الهزلية فهو فارس مجالها ، وامام رجالها ، ورب رويتها وارتجالها وله همة تبذ من يباريها ، واخلاق تفتقر الى من يداريها .

طولب ــ فيما فرط ــ بالحضور مع الكتاب ، وملازمة خدمة الباب . فتجنـى على عادته ، وتوعد باسقاط مرتبته ، فلم يرغب فى اعادته . بل كبر

سكانها حاليا بحوالى 35 الف نسمة ، بينما كان سكانها ــ على عهد ابـن الخطيب المولود بها ــ يجاوز هذا العدد بكثير كما تقول الرواية الاسلامية . هذا، ولم يبق الان من الآثار الاسلامية بهذه المدينة سوى اطلال القصبة أو القلعة ، وبقايا بناء فى باطنها يرجح انها كانت مسجدا ، وهو عبارة عن ثلاثة عقود على على صفين ، ولكن لا تشتمل على أية نقوش أو كتابات ، ويسمى هذا المكـان بالجب ALGIB ، وتقع الكاتدرائية على مقربة من القصبة وفوق المسجـد القديم ، استنادا الى التقليد العام للسياسة الاسبانية ، التى كانت تقيـم الكنيسة المعظمى فى كل بلد مفتوح على انقاض المسجد الجامع ، ومن المعروف ان المسجد الجامع كان يقع وسط المدينة دائما ، ويدعم هذا ان الكاتدرائية تحتل اليوم وسط المدينة . وتجدر الاشارة اخيرا الى انه ــ حتى هذه اللحظة ــ لم يعثر عالم أو مؤرخ على أى اثر يتعلق بحياة الوزير ابن الخطيب فى هذه المدينة، ــ وهى مسقط راسه ــ أو حتى موقع بيته ، لطول العهد ومرور السنين الطوال . راجع . نفس المصدر السابق ص 58 ــ 59 .

55) آخر دولة اسلامية تقلدت الحكم بالاندلس ، وتعرف أيضا بدولة بنى الاحمر ، كانت عاصمتها غرناطة ومؤسسها هو أول ملوكها الغالب بالله امير المؤمنـين ابو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن خميس ابن نصر بن قيس الخزرجـى الانصارى ، وذلك عام 1238 م ، وكان آخر ملوك هذه الدولة ابو عبد الله محمد الاخير ، حيث سقطت غرناطة على عهده بالتسليم فى يد الملكين الكاثوليكيـين فرناندو وايرابيلا فى 2 يناير 1492 م وهكذا انحسر المد الاسلامى عن اوربا منذ ذلك الحين ، بعد ان عمرت الدولة الاسلامية فى الاندلس زهاء ثمانية قرون راجع . المصدر السابق ص 19 ــ 21 .

على الخدمه أربعـا وسلم ، وما ارتمض لهـا ولا تالم . وعكف علـى اقامة أوده ، بانتجاع غلة بظاهر بلده ، باشرها بنفسه ، وجعلها معنى راحته ومغنى أنسه ، واتخذها وقاية لماء وجهه (89 . ب) الى أن يحل فى رمســـــه .

وهو مـن أهل الوفاء وحفظ العهد ، المشاركة فى الرخاء والجهـد ، والانقباض عن هذا الغرض والزهد . الى حسب تطرزت الدفاتر بآثاره وتضوع الحبر مسكا بأخبار أخباره . وشعر بلغ فى الاجادة الغاية ، ورفع للمحسنين الراية .

ومن ذلـك فى وصـف :

44 ــ أبـى بكر بـن الحكيـم

ماجد أقام رسم المجد بعد عفائه ، وأيقظ طرفه بعد اغفائه . محله محل ضيفان ، وقرع جفان . ومنهل وارد ، وفطنة ضال من العلاء وشارد . مثواه لا يخلو من قرى جزيل ، لقاصد أو نزيل . الى غير ذلك من التحلى بحلية الآداب ، والمبادرة الى اكتساب المعلومات والانتداب .

برز فى علم الحديث وروايته ، واجتنى ثمرة رحلة أبيه وهو فى حجر دايته ودون ــ الآن ــ الفهارس ، وأحيا الاثر الدارس . وارتقى مـن الكتابة الى المحل النبيه ، واستحق رتبتها من ميراث أبيه ، فأينع روحه وتأطر (56) ، وأرج (90 . أ) وتعطر .

وله شعر أنيق الحلية ، جاز فى نمط العلية (57) . وسيمر ــ فى أثنائـه ــ ما يدل على قدره ، ويشهد بسعة صدره .

---

56) تأطر . تثنى .
57) نمط العليـة . هيئة كبار القوم .

ومن ذلك فى وصف :

45 ــ أبى جعفر بن صفوان المالقى

فارس البلاغة المعلم ، وحجة الادب التى تسلم . والبطل الذى لا ترد شباة يقده، ولا تحل مبرمات عقده . من جهبذ راض صعاب البيان وساسها ، وميز أنواعها وأجناسها ، وأحكم ضروب العبارة ونظم قياسها . فأحل الاسود عرينها والظباء كناسها . الى ذهن يأنى الغوامض فتنبلج ، ويقرع أبواب المعميات فيلج ، وهمة يود فرقد السماء وسهاها أن يبلغ منتهاها . أخذ من العلوم بنصيب ، ورمى فى أغراض التعاليم بسهم مصيب . فركض فى مجالها ، ورحل الى لقاء رجالها . ودعى لاول أمره ــ للكتابة لما اشتهرت براعته . فأجاب وامتثل ، وراش (58) سهام بيانه ونثل (59) .

ثم كر والدولة قد جفت (90 . ب) منها القواعد ، وأنجزت بادالتها المواعد . فاصطنعته الدولة الاسماعيلية (60) بجانبها ، وقلد سر كتابها ، والهيجاء تدور رحاها ، والامور لا يتبين منحاها . فلما وضعت

---

58) راش السهم . الصق به الريش .

59) نثل الكنانة . استخرج نبالها فنثرها .

60) نسبة الى السلطان أبى الوليد اسماعيل الاول بن فرج ابن نصر ابن الاحمر ، تولى السلطة فى غرناطة فى شوال 713 هـ (ابريل 1313 م) وفى عهده تويت حركة الجهاد بالاندلس ؛ اثر متابعة القشتاليين غزواتهم ضد مملكته ، حتى حقق نصرا ساحقا عليهم ، ولكن لم يمض على هذا الانتصار سوى فترة وجيزة ، حتى حتى قتل السلطان عقب عودته الى غرناطة بيد ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة ، قتله غدرا لاسباب شخصية فى 26 رجب 725 هـ (7 ديسمبر 1324 م) .

راجع . ابن الخطيب فى « الاحاطة » ج 1 ص 397 ، واللمحة البدرية ص 71 ــ 74 ثم ابن خلدون فى « العبر » ج 4 ص 172 ، ج 7 ص 250 . ط القاهرة 1284 هـ .

الحرب أوزارها ، وخفضت الامور زارها ، اثر الرجوع الى وطنه ، وأجر هداه فى ذلك فضل رسنه . وضلت الخدمة عنه فما نشدها ، وقصر نفسه على ما يقيم أودها . ولم يثن بعد الكـر عنانه ، ولا أعمل فى خدمة ملك بنانه . وكل ما صدر عنه ــ من نظم تروق أسرته ، وتتشوق اليه تيجان الملك وأسرته ــ فالتصوف مجاله ، وفى غرض رويته وارتجاله .

ومن ذلك فى وصف :

46 ــ أبـى اسحاق ابن زكريـاء (61)

حامل لواء الخط ، والمنفرد بأحكام المشق والقط ، ومن تفتقر الى بنانه المخاطبات السلطانية افتقار المشروط الى الشرط . شديد التحفظ ، مقدرا للكلام خير التلفظ عظيم البشاشة والبر ، أمين على السر . (91 . أ) الى نفس جبلت على الخير ، وأخلاق حسنة السيرة رفيعة السير ، وحياء كثف جلبابه ، وسد فى وجه النية بابه . وكلف بالعلم وأوضاعه ، والتطلع على رقاعه . وبكفيه ــ فضلا لا تخبو ناره ، ولا يخفى مناره ــ ما خلد من كلام شيخ الجماعة ، وعلم الصناعة ، فقد أودعه بطون الاوراق ، وجمعه بعد الافتراق وأطلع نوره بادى الاشراق ، وألبس الايام به حللا أبهى من حلل صنعاء العراق .

والشعر ــ وان كان قليلا ما يعنى باجادة صناعته ، ومعاناة بضاعته ــ فحظه منه لطيف الهبوب ، حسن الاسلوب .

---

61) هو الشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى بن زكرياء ، من مشاهير قضـاة الاندلس ، عرف عنه فعل الخير والانقباض عن الناس . قرأ على ابيه ، ثم على الاستاذ ابى جعفر بن الزبير ، وأخذ بنسبتة عن ابى اسحاق الغافقى ، كما لازم أبا عبد الله التونسى صوفى العصر ونظيره فى هذا المذهب كأبى جعفر ابـن الزيات وابى الطاهر بن صفوان وغيرهما ، وقد اشتغل بالكتابة فى الـدار السلطانية فترة من الزمن ، كانت ولادته فى الثالث والعشرين من شهر شعبان من عام 751 هـ .

ومن ذلــك فى وصــف :

47 ــ أبى اسحاق بن الحــاج

طلع شهابا ثاقبا ، وأصبح بشعره للشعرى مصاقبا (62) . فنجم وبرع وتمم المعانى واخترع . وكلف بالادب وهو غلام يافع ، وله من الحسن ــ لكل قلب ــ شافع . فأترع كاسه ، ونضد ريحانه وآسه ، ونبه للصبوح ــ من بعد الكر ــ أناسه . ولم يزل دوحه يتأرج ، وعقائله شائعة تتبرج ، (91 : ب) حتى دعى للكتابة ، وترشح لتلك المثابة ، يطرز المعارف بمرقوم أقلامه ، ويشنف المسامع بدرر كلامــه .

وأزمع الرحيل لما خاف على بضائعه الضياع ، فركب الفلك وشرع الشراع ، فحج وزار ، وشد للطواف الازار . ثم هفا الى المغرب وحوم ، وقفل قفول النسيم عن الروض بعدما تلوم ، فاستقر بعد (فــى) ظلال الدولة الموحدية ، فحط بها على نار القرى ، وصمد عندها صباح السرى . ثم لم يلبث أن تنقل ، ووجد الجميم فعافه وتبقل . وهو الآن فى جملة كتاب المغرب ، حساما فى البلاغة دامى المضرب .

أخذ من العلوم بنصيب ، ورمى فى أغراض التعاليم بسهم مصيب .

ومن ذلــك فى وصــف :

48 ــ أبى القاســم بن قطبــة

سابق ركض فجلى ، وشارق طلع فتجلى ، وفاضل تحلى من الخلال البارعة بما تحلى . أتى من أدواته بالعجائب ، وأصبح صدرا فى الكتاب

---

62) الشعرى . الكوكب الذى يظهر فى الجوزاء ، ويبدو واضحا فى شدة الحر . والمصاقب . الملاصق المجاور .

وشمسا فى الكتائب . وكان أبوه ــ رحمه الله ــ بهذه البلاد (63) قطب أفلاكها ، وواسطة أسلاكها ، (92 : أ) وموتم أملاكها ، وصدر رجالها ، وولى ربات حجالها ، لصدق يقينه ، ومحافظته على أركان دينه . قد نثل بينه سهما سهما ، فخبره براعة وفهما ، وألفاه بينهم ماضيا شهما . . (64) منه نجيبا ، ودعاه الى الجهاد فألقى منه سميعا مجيبا . فصحب السرايا المغيرة ، وحضر من الوقائع الكبيرة والصغيرة ، وباشر الحرب وبأسها ونازع ذلك الشرب كأسها ، على مصاحبة البعوث ، وجوب السهول والوعوث ، فما رفض اليراعة للباتر ، ولا ترك الدفاتر للزمان الفاتر .

ولم يزل يبهر بأدواته ، وينتج البدائع بين قلمه وأدواته ، فان خط فاخر ببراعته للخط الى خلق سلس المقادة ، ونفس للمكارم منقادة . وأدب بديع المقاصد ، قاعد للمعانى بالمراصد . واستأثرت به الكتابة السلطانية فشعشع أكواسها وعاطاها ، وكان من تلك القلادة الرفيعة وسطاها . وله همة يحسدها فرقد الافق وثرياه ، وكتابة تنازع الروض طيب رباه .

ومن ذلك فى وصف :

49 ــ ابى بكر القرشى

قريع مجد وحسب ، متقدم ــ على تأخر زمانه ــ بذات ومنتسب ، من دوحة الشرف التى لا يذوى نضيرها ، ونبعة الديانة التى لا يغيض نميرها . اذا ذكر الصالحون . . (65) بعمرو ووالده ، وأكرم بطريفة وتالدة . أصبح لعبة الطرف ناسما ، فلا تراه الا ضاحكا باسما . الى

---

63) الاشارة الى الاندلسى .
64) محو فى الاصل . وفى نسخة اخرى « قد مر » مكان المحو .
65) محو فى الاصل . وفى نسخة اخرى « بحى هلا » مكان المحو .

حلاوة الضرائب والشمائل ، والادب المزرى بأزهار الخمائل . فمـا شئت من مداعبة تمتزج بالنفوس ، ومجاورة تزرى بالكؤوس ، وأدب عذب مذاقه ، اعترف به فرسان الكلام وحذاقه ، ومعان جاءت من السهولة بما تقتضيه أخلاقه ، وعفاف ضفت أذياله وطرف صفت جرياله .

ومن ذلـك فى وصـف :

50 ــ أبـى عبد الله بـن جـزى (66)

فرع محل بسق ، وثاقب طلع فجلى الغسق . وأديب قرع من الادب كل شاهق ، وحدث عما بين عاد وبينه وصدغاه فى خدى غلام مراهق . فند أقرانه وأترابه ، وأجال (93 : أ) فى ميدان الفنون غراته . فأصبح نادرة أوانه ، وواسطة عقد اخوانه . فهو النبيه الذى قل له الشبيه ، والوجيه الذى قصر عن لحاقه الوجيه (67) . اذا ذكرت الغرائب قال : أنا لها ، ولـو تعلقت الغوامض بالثريا لنالهـا . الى خلق أعذب مـن

---

66) هو الكاتب ابو عبد الله بن جزى الكلبى ، ولد بغرناطة فى شوال 721 هـ (يناير 1321 هـ) ، وتولى منصب الكتابة فى ديوان سلطان غرناطة ابى الحجاج يوسف الاول (733 ــ 755 هـ) فترة من الوقت ، فحاز اعجاب معاصريه من الادباء ، وله مدائح فى هذا السلطان ومعاصره بالمغرب أبى الحسن المرينى . وقد ظل فى هذا المنصب حتى دس له أعداؤه عند ابى الحجاج ، الذى اقصاه بعد تعذيبه ، فشد رحاله عن الاندلس الى المغرب ، حيث التحق بديوان الكتابة فى البلاط المرينى لدى السلطان ابى عنان فارس ، حتى وافاه أجله فى 29 شوال 758 هـ اكتوبر 1356 م ، حيث دفن بفاس . ويعتبر ابن جزى ــ فوق صناعته الادبية ــ من العلماء الافذاذ ، بما شهر عنه فى علوم اللغة والتاريخ والحساب ، بشهادة الامير اسماعيل ابن الاحمر فى كتابة « نثير فرائد الجمان » .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » ج 8 ص 40 ــ 42 ، ثم « يوسـف الاول ابن الاحمر » للمحقق ص 57 ، ونثير فرائد الجمان ، ص 292 ــ 307 (بيروت 1965) .

67) اراد بالوجيه الاول : سيد القوم ، وبالثانى : الفرس المبادر .

الضرب (68) ، وأسمى من بلوغ الارب ، ونبل لا تطيش نباله عن غرض ، وذكاء يكشف كل مشكل مهما عرض .

وله أدب تود العقود محاسن شذوره ، وتقصر الصدور عن اعجازه . وصدوره ، وتتضاءل أهلة المعانى عند طلوع بدوره .

ومن ذلك فى وصف :

51 ـ أبى العلا بن سماك

كاتب ماشق ، وأديب لريح الادب ناشق . ذو طبع سائل ، وكلف بالمسائل ، فلا يفتر عن تقييد ونقل ، وجلاء للفوائد وصقل . كتب مع الحلبة فأحكم الخط وأتقنه ، وتلقى السجع وتلقنه . وأنشد الشعراء فأجرى بعير الخلاء ، وجعل دلوه فى الدلاء .

وله بيت معمور فى القديم (93 . ب) بصدور قضاة ، وسيوف فى الدين منتضاة . ولم يزل منتظما فى السلك ، ومرتسما فى كتاب الملك . الى أن عضه الدهر بنات خطوبه ، وقابله بعد البشاشة ـ بقطوبه ، فتأخرت ـ فى هذه الايام ـ جرايته ، ونكصت ـ على العقب ـ رايته .

وقد أثبت من شعره ما يشهد باجادته ، وينظمه فى فرسان الكلام وقادته .

---

68) الضرب : بتشديد الضاد وفتحها مع الراء ، العسل الابيض .

ومن ذلــك فى وصــف :

52 ــ محمد بن عبد الله بن الخطيب . رحمه الله

(المــؤلـــف)

ان خلطت العذب بالاجاج ، ونظمت مخيلتى بين در هذا التــاج ، فلم أبغ تعريفا ولا تنبيها ، ولا اعتدت أن أقرظ نفسى وأزكيها . ولكنى بأوت نفسى (69) . عن مفارقة أبناء جنسى . فزاحمتهم فى أبواب هذه الآداب ، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو فى الكتاب .

ولما رأيت حللهم الموشية الطرر ، وحلاهم الواضحة (94. أ) الشياة والغرر ، نافستهم منافسة الاكفاء فى حلة تزين منكبى ، ورايــة تتقدم موكبــى . فجلبت فضلا حلانى بــه رئيس الصناعة ، وامــام الجماعة (70) ، فى بعض المنشورات السلطانية ، البسنى به الشرف ضافى الاردان ، وتركنى معلم ذلك الميدان . وهوى ظهر أثر اعتقاده الجميل فيه ، وفتح له أبواب القبول والتنويه ــ تشرع الى الغر الوجيه ، والقدر النبيه ، ورعى له وسائلها التى كرمت معانيها ، وعذبت مجانيها ، وتأسست على قواعد البلاغة مبانيها . وعرف ماله من الاصالة التى تميز فى اعيانها ، وبراعة الادب التى أحرز خصل رهانها ، وتلقى باليمين راية فرسانها .

ولما اختصه بالتقريب والايثار ، واعتمده بولايات ملكه الكبار ، وقربه فى بساط ملكه حماية وعناية ، وأطلع من آيات السعادة آيــة ، وابتدأ بالخطط التى هى لغير غاية ــ رأى أن يستعمله فيما هو لديه

---

69) أراد الا ينسلــخ عن قرنائــــه .

70) يقصــد بــه « الشيخ الرئيس أبا الحسن على ابن الجباب » رئيس ديوان الانشاء فى البلاط النصرى ، والذى تقدمت الترجمة له من المؤلف .

أهم موقعا ، وأعز موضعا . (94 . ب) وأن يجمع له الكتابتين انشاء وديوانا ، ويطلع له وجوه الرعاية غرا حسانا . فحسبى ما خلد لى بذلك من مجد ، وقلدنى من فخر أشهر من نار على نجـد .

وأما شعرى ونثرى فقد أثبت منه ــ بعد سؤال الاغضا ، والنظر بعين الرضا ــ ما تعلق بالذكر ، واحتجب بحجاب الضمير من بنـات الفكـــر .

ومن ذلـك فى وصـف :

53 ــ أبـى جعفر بن خاتمـة (71)

ناظم درر الالفاظ ، ومقلد جواهر الكلام نحور الرواة ولبات الحفاظ، ذو الادب الذى أضحت شوارده حلم النيام وسمر الايقاظ ، تمكن فـى

---

71) هو الشيخ أحمد بن على بن محمد أبو جعفر الانصارى . ولد بمدينة المرية عام 734 هـ (1333 م) وقضى شطرا هاما من حياته استاذا بمدرسة غرناطة، واشتغل بالتأليف ، فمن مؤلفاته رسالته « مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية » ولم تثنه مشاغله العامة عن قرض الشعر ، فمن قوله فى الحكم:

هـو الدهر لا يبقـى على عائذ بـه ... فمـن شاء عيشـا يضطبر لنوائبـه
فمن لـم يصب فى نفسه فمصابـه ... بفـوت أمانيـه وفقـد جبائبـه

وتجدر الاشارة ــ فى هذه المناسبة ــ الى ان ابن الخطيب حينما فكر فى مغادرة الاندلس ذات مرة كتب الى صديقه « ابن خاتمة » رسالة رقيقـة ، يستعطفه بها ان يعدل عن هذه الفكرة ، ويقول له « انكم بهذه الجزيرة شمس افقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها وطراز ملكها ، وقلادة نحرها وفريد دهرها . وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على المعلوم والمخصوص . ثم انتم مدار افلاكها ، وسر ساسة املاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان احسانها ، وطبيب مارستانها ، والذى عليه عقد ادارتها ، وبه قوام امارتها » فاجابه ابن الخطيب برسالة مؤثرة كذلك .

توفى « ابن خاتمة » عام 770 هـ (1369) ودفن بمسقط رأسه المرية .

راجع : ابن الخطيب « الاحاطة » جـ 1 ص 247 ــ 267 ، تحقيق « عنان » ، ثم المقرى فى « ازهار الرياض » ص 265 ــ 270 ، حيث يورد كلا المؤلفين هاتين الرسالتين كاملتين . ...

بياض طرسه وسواد نفثه سحر اللحاظ . رفع بقطره راية هذا الشأن على وفور لبته ، وجدع قمة البيان على سمو هضبته ، وفوق سهمه الى نحر الاحسان فائثبته فى لبته . فان أطال شأى الابطال (72) ، وكاثر المنسجم الهطال . وان أوجز فضح وأعجز ، فمن نسيب تهيج به الاشواق ، وتضيق عن زفراته (95 . أ) الاطواق . ودعابة تقلص ذيل الوقار ، وتزرى بأكواس العقار . الى انتماء للمعارف ، وجنوح الى ظلها الوارف .

ولم تزل فضائله بتلك البلدة (73) تنفسح آمادها ، حتى تنافس فيه قوادها ، فاتخذوه كاتب أسرارهم ، وترجمان أخبارهم .

وقد أثبت من مقطوعات شعره ، ونفثات سحره ، ما يستأثر السامع ، ويقرط المسامع .

ومن ذلك فى وصف :

54 ــ أبى عبد الله بن بقى

مدير لاكواس البيان المعتق ، ولعوب بأطراف الكلام المشقق . انتحل ــ لاول أمره ــ الهزل من أصنافه ، وجنى ثمرة الابداع لحسن قطافه . ثم تجاوزه الى المغرب وتخطاه ، فأدار كأسه المترع وعاطاه . فأصبح لفنيه جامعا ، وفى فلكيه شهابا لامعا . وله ذكاء يطير شرره ، وادراك تنبلج غرره . وذهن يكشف الغوامض ، ويسبق البارق الوامض .

وعلى ذلاقه لسانه ، وانفساح أمد احسانه ، شديد الضنانة بشعره ، مغل لسعره . أجاب (95 : ب) أحد الادباء ممن خطب أدبه ، واستدعاه للمراجعة وندبه .

---

72) شأى الابطال : سبقهم .
73) المرية .

ومن ذلــك فى وصــف :

55 ــ أبى على حسن بن عبد السلام

فارس براعة بارعة ، ورب بديهة مسارعة . لاك الكلام وعلكه ، واستحق الاحسان وملكه ، وأدار على قطب الاجادة فلكه ، وساعده الدهر فتحرى طريق الشرف وسلكه . ولم يزل القدر يساعده ، والتدبير ينوء به ساعده ، حتى تجلت بالثراء حاله ، وعظم جاهه وماله . ولما تقلبت الفتنة بدولته ، وعجمت عود صولته ــ اثر الرحيل ، وفارق ربعه المحيل . واستقر بحضرة تونس يروم الوجهة الحجازية ، وقد تبرأ من قــول الشــاعــــر :

« ومــا أنــا الا مــن غزيــة »

فأتــاه بها حمامه ، وانقضت ــ دون أهله ــ أيامه .

وله أدب غض الجنا ، أنيق اللفظ والمعنى ، على قصر باعه ، وقلة انتجــاعــــــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

56 ــ أبــى الحسن بن الصباغ

اللسن العارف ، والناقــد لجواهــر المعانى كما تفعل بالسكــة (96 . أ) الصيارف . والاديب المجيد ، الذى تحلى به العصر والجيد . ان أجال جياد براعته فضح فرسان المتهارق ، وأخجل بين بياض طرسه وسواد نفسه الطرر تحت المهارق . وان جلى أفكار أفكاره ، وأثار طير

البيان من أوكاره ــ سلب الرحيق المقدم (74) . ذو همة لا يرتد لها طرف ، وابابة لا يفل لها غرب ولا جرف .

وفى هذه الايام دعاه شيخ الغزاة (75) الى كتابة سره ، وقام بواجب بره . وله أدب غض ، وزهر ــ على مجتنيه ــ مرفض .

---

74) المقدم : بضم الميم وتشديد الدال ، الشبع حمرة .

75) هو القائد يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الحق ابو زكريا . ولد بظاهر تلمسان عام 691 هـ (1288 م) يتصل نسبه بملوك بنى مرين ، ولى مشيخة الغزاة بالاندلس (قيادة الجيش) مرتين . أولاهما قبل هلاك الوزير ابن المحروق فى عهد السلطان محمد الرابع ، والاخرى بعد ان نكب السلطان يوسف الاول أسرة القائد السابق الشيخ ابن ثابت ، وقبض على هذا الاخير ، ثم نفاه الى افريقية (تونس) . ومن صفات الشيخ ابى زكريا شدة البأس والمرونة وعراقة النسب والدهاء والوعى للامور فى عمق ، والتفانى فى العمل لصالح الاسلام والعرش النصرى ، رأس قبيلته ، والبحاثة عن الاخبار ، والخبير بالانساب ، وذو الدراية بالسن قومه ، يعى الكثير من الحكم والتاريخ ، عفيف لا تناله الالسن الا مدحا ، ولا ينازعه المنصب منافس .

كانت ولايته للقيادة ورئاسة القبيلة اواسط شهر صفر 727 هـ (9 يناير 1327 م) بادىء ذى بدء ، واستمر بها حتى 7 محرم 729 هـ (4 ديسمبر 1327 م) ، حيث بقى معزولا ، الى أن أعاد اليه رتبته كقائد السلطان يوسف الاول فى يوم 29 ربيع الاول 741 هـ (22 سبتمبر 1340 م) وظل فى منصبه حتى نهاية عصر هذا السلطان ، ثم جدد له ولده الغنى بالله محمد الخامس القيادة ، وضاعف حظوته ، ونوه رتبته .

وقد بقى هذا القائد فى منصبه حتى أوائل شهر رمضان 762 هـ (يونيه 1361 م) حيث فر الى تشتالة فى ظروف خاصة لاجئا سياسيا فترة من الوقت ، ثم عاد الى الاندلس متمتعا بسابق حظوته لدى الغنى بالله بعد استرداده لملكه ، ولكن السلطان قبض عليه وعلى ابنه عثمان يوم 13 رمضان 764 هـ (1363 م) وسجنهما بقصبة « المنكب » ، ومن ثم نفاه الى افريقية ، ومنها التحق بفاس التى قضى بها اخيرا .

راجع : ابن الخطيب فى « الاحاطة » نسخة جاييجوس بالاسكوريال 1673 لوحة 339 ــ 400 من المخطوط .

ومن ذلــك فى وصــف :

57 ــ أبــى عبد الله الطــراز

روضة أدب وظرف ، لما شئت من حسن وعرف . أشرقت ذكاء لفرط ذكائه ، وتضوعت آدابه تضوع الروض غب سمائه . الى حلاوة الخلائق والضرائب ، والشيم الحسنة والمعانى الغرائب . ترتاح الــى مجالسته المحاضر ، ويرف من أفنان فكاهته الزهر الناضر . فما شئت والمشاركة فى كثير من الفضائل .
من توقيع رفيع (التقدير) ، وتندر بالاصابة جدير ، ولطافة الشمائل

وله (96 . ب) نفس تطمح الى بلوغ المعالى ، وفكرة تحوط حلل البدائع فى الطراز العالى . وأدب كالروض باكرته السحائب ، وحملت أرجــه الصبــا والجنائــب .

وقد أثبت من شعره كل عطر النسيم ، سافر عن المحيا الوسيم .

ومن ذلــك فى وصــف :

58 ــ أبى جعفر بن داود الوادى آشى (76)

شيخ العمال المؤتمن على الجباية والمال ، المستوفى شروط الفضل على الكمال . تواضع ــ رحمه الله ــ مع العلو ، ولبس شعار السكون

---

76) نسبة الى مدينة وادى آشــى Guadex ، تقع شمال شرق غرناطــة على نهر فردس ، وتبعد عن غرناطة بنحو 55 كيلومترا . اشتهرت فى العصر الاسلامى بمعادنها وخصوبتها وصناعاتها ، كما تمتاز بطقس ممتاز على مدار العام ، وهى المدينة التــى نفى اليها آخر ملوك الاندلس قبل أن يرحل نهائيا الــى المغــرب .
راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ص 192 ــ 193 ، نشر ليفــى بروفنسال (ليدن 1938 م)

والهدو ، وبذل المجاملة للصديق والمسالمة للعـدو . ولازم مجالس الملوك بحيث يضر وينفع ، ويحط ويرفع . فما شاب بالاساءة احسانا ، ولا أعمل ـ فى غير المشاركة ـ لسانا . الى غير ذلك من الادب العطر النسيم ، السافر عن المحيا الوسيم . واشتهر بالوفاء اشتهار دارين بطيبها ، واياد بخطيبها (77) ، فكان حامل رايته ، ومحرز غايته .

ومضى لسبيله فقيدا أعم بفقد وخص ، وهاص أجنحة الحاجات وقـــص .

وله أدب يصيب شاكلة (97 . أ) الرمى بنباله ، ونظم تضحـى المعانى قنائص حبالـه .

ومن ذلـك فى وصـف :

59 ـ أبـى عبد الله بن حسان

كاتب انشاء وديوان، وصدر حفل وايوان . وفارس يراعة، وروض أدب وبراعة . يملى الرسائل لا يجف مدادها ، وينظم القصائد لا يعيبه امتدادها ، ويحبر الرقاع ويوشيها ، ويصور المعانى وينشيها ، ويدبج برود البدائـع ويطرز حواشيها . الى خط تهيـم الالحاظ بالتمـاح سطوره (78) وتغـار الرياض بمسطوره .

---

77) هو قس بن ساعدة الايادى خطيب الجاهلية المعروف ، ومضرب المثل فـى البلاغة والحكم والمواعظ كان يؤمن بأن هناك الاها من وراء آلهة قومه ، واستشعر التوحيد فى مناسبات عرفتها المؤرخات عن فترة الجاهلية قبـل بـزوغ فجـر الاسلام .

78) لمح والتمح البصر : امتد الى الشىء ، ولمح الرجل الشىء ، ابصره بنظـر خفيف أو باختلاس النظر ، ولمح الشىء بالبصر : صوب بصره اليه ، وهـو المراد فى النص .

وأبوة ومجادة ، وبيت أمطره الفضل وجاده . وأنجبت منه أبوة صاحب الاشغال ــ رحمه الله ــ خلفا سد مسده ، وتجاوز فى السر وماجده .

ولم تزل الاسماع تخطب بدائعه ، وأسواق الاسواق تغلى بضائعه ، حتى أصبح فردا فى أترابه ، وفذا فى أغرابه . وله نفس عذرية الشمائل ، ولسان هام بزهر الرياض وظلال الخمائل ، وطبع الى شيم الرصافة والجسر (79) مائل .

ومن ذلك فى وصف :

60 ــ أبى عبد الله بن مصادف الرندى (80)

(97 . ب) من شيوخ الطريقة العملية ، ومنتحلى الصناعة الادبية . كان ــ رحمه الله ــ مجموع ظرف ، ومسرح كل طرف ، من خط بارع ، وأدب ــ الى دواعى الاجادة ــ مسارع .

ولما صار أمر رندة ــ كلأها الله ــ عند اشتعال الحرب ، وتوالى الضرب ــ الى ملك المغرب (81) قلده أعمالها ، وجعل الى نظره مالها . ثم نقل الى بعض الولايات ببر العدوة وبها قضى نحبه ، وفارق صحبه ، بعد معاناة خطوب ومعاشرة صروف من الدهر وضروب .

وله أدب طاب وتأرج ، وعطف على رسوم الاجادة وعرج ، ومعان تتحلى بحلى العذارى وتتبرج .

---

79) يشير الى قول الشاعر :
عيون المهابين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
ولابن الابار ايضا فى وصف « بلنسية » غناء بالرصافة والجسر .

80) نسبة الى مدينة رندة ، وقد سبقت الاشارة اليها فى مناسبة اخرى .

81) هو السلطان ابو الحسن على المرينى .

ومن ذلــك فى وصــف :

61 ــ أبى اسحاق بن جعفــر

شيخ توقيعة نادرة، وفكاهة واردة وصادرة . ونظم أنيق الديباجة، لطيف الزجاجة ، عطر النفحة عذب المجاجة . وظرف لا يذوى دوحه ، وأدب تأرج روحــه .

وقضى ــ رحمه الله ــ وقد خلف عقيما نجيبا ، وابقى من ابنه أبى جعفر مستمعا للفضل مجيبا . جاز فى الاحسان طلقة ، وحاســن (98 . أ) فلقــة .

وقد أثبت من شعره ما يقر بوفور مادته واستقامة جادتــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

62 ــ أبـــى جعفــر

كاتب حساب ، ومنتسب للآداب أى انتساب . ان فكــر ورى فأعمل ، وان ابتدر وارتجل أولد البدائع وانتحل . وله منطق ان حاول الصعاب فيلينها ، ويتناول الغوامض فيبينها ، ويجلو كل ساحرة الالباب بروق جبينها . ويوسع المحاضرة امتاعا ، ويمد فيها خطوا وساعا .

وقد خطب من بيانه لهذا المجموع ، ولــم أقف منه عند نبــرة المسموع . لكنى اجتزأت منه بما تيسر ، وقنعت بما تحضر ، واكتفيت برائقة الاثير ، وأقمت قليلة مقــام الكثيــر .

ومن ذلــك فى وصــف :

63 ــ أبى الحسن البربرى المالقى

شاعر ينفق فى سعة ، وينطق وسط المجمعة . ومطبوع لا يتكلف ، ومجيد اذا نهض البلغاء لا يتخلف . عانى النظم وزمنه كمثله غلام ، ودهره تحية وسلام . ومدح فانتفع ، وشفع شعره للملوك فشفع . ولم يزل يتصرف فى الاعمال ، ويقابل الاحسان والاجمال (98 : ب) .

وقد أثبت من شعره كل محكم العقد ، شديد الوطأة على النقد .

ومن ذلــك فى وصــف :

64 ــ أبى القاسم بن مقاتل المالقى

من حسناء الطريقة وصدورهــا ، والمحاسن لترائبها العاطلـــة ونحـــورهـــا .

كان ــ رحمه الله ــ هضبة وقار وسكينة ، وذا مكانة فى الفضل مكينة . الى صدر سليم ومجد ضميم . وخلق عظيم السهولة ، وسمت خليق بسن الكهولة . ولسان مغرى بالذكر وتقلب بين الجد والشكر .

والى ذلك ، فكانت له دعابة صائبة السهم ، ونادرة يتنافس فيها أولو الفهم . ومجالسة طيبة وفكاهة غمامتها صيبة .

واستعمل فى الولايات النبيهــة (82) ، فحمدت سيرته وحســن أثره ، وكرم خيره وخبره . وأنجب عقبا جاريا على سننه ، متخلقا من الســرو (83) بأحسنـــه .

---

82) الولايــات النبيهة : الاقاليم الشهيــرة .

83) الســرو : بتشديد السين مع الكسر وسكون الراء ، وهو السخاء والمروءة .

وكان له أدب غض الجنا ، طيب اللفظ والمعنى . ومقطوعة حسنة المقاطع ، سافرة عن الحسن الساطع .

ومن ذلـك فى وصـف :

65 ــ أبى زيد عبد الرحمن المينشتى

من شيوخ طريقة العمـل ، المتغلبين من أحوالها بين الصحـو والثمل ، (99 . م) المتعللين برسومها حين اختلط المرعى بالهمل .
وهو ناظم أرجاز ، ومستعمل حقيقة ومجاز . نظم بها مختصر السيرة ، فى الالفاظ اليسيرة . ونظم جزءا من الزجر والفـال ، نبـه به تلك الطريقـة بعد الاغفـال .

ومن ذلـك فى وصـف :

66 ــ أبى جعفر ، المعروف بالبقيل ــ من أهل المرية

بقية صالحة ، وغرة فى الزمن واضحة . أرخ وقيد ، وأحكم بناء العبارة وشيد . ورقم الرسائل البدائع ، وحقق ببلـده الاخبار وكتب الوقائع . فمجالسه عظيمة الامتاع ، ومحاضرته مقرطة الاسماع .
وله شعر جزل ، لا ينتكب لمعانيه غزل وألفاظ صقيلة ، ومعان تتبرج تبرج العقيلة . وأغراض لا تطيش نبال نبلها ، ولا تطمس لاحبـة سبلهـا .
وقد أثبت منها ما يشهد باجادته ، ويدل على كرم مجادته .

ومن ذلـك فى وصـف :

67 ــ أبى جعفر بن جعفر ــ من أهل مالقة

(99 . ب) أديب مجيد ، وبطل فى الحساب نجيد . تقدم فى الطريقة

العملية وبرز ، وطرر طروسها وطرز ، ونفذ فأبرز . وعانى النظم فأجاده ، واستقى غمام الادب فجاده ، وسلك الالفاظ وخلصها ، واستطرد المعانى واقتنصها ، ومرت به النادرة فاغتنم فرصها وله أخلاق رقيقة ، ونفس لكل عذرى شقيقة .

وقد أثبت من شعره ما وقع فى يدى وارتسم فى خلدى .

ومن ذلك فى وصف :

68 ــ أبى على حسن بن الخطيب أبى الحسن التيجاطى (84)

حسنى المذهب ، وهائم بكل عذار موشى وخد مذهب . نشأ بين يدى أبيه ــ رحمه الله ــ وحلقة درسه مكنس آرام ، ومثار صبابة وغرام ، ومطلع الشموس والاهلة من ابناء الجلة فركض فى الكلف ملء عنانه ، ومكن الجنون السود من سويداء جنانه ، وعذب عنده تعذيبه ، حتى اشتهر غزله ونسيبه .

ولما نصب عود تلك الشبيبة ، وصوح نبت تلك الرياض العجيبة ــ تعلق بالخدمة (100 . م) فانتظم فى أهلها ، وسار فى حزنها وسهلها . وظهرت عليه نبعات عبر لها اللجة ، وقطع الحجة ، واستقر ببجاية ، فارتفد وارتفق ، وعرض شعره فغلا سعره ونفق . ثم ارتحل ــ على هذا العهد ــ الى أم تلك المملكة (85) ، والقائمة بحساب تلك البلاد مقام الفذلكة . فاستند الى بابها ، وارتسم فى سلك كتابها .

وقد أثبت من شعره المطبوع ، أيام مقامه بهذه الربوع .

---

84) انظر ترجمة هذا الاديب فى مجلة الثقافة المغربية (العدد الاول ــ السنة الثالثة عشرة ــ شعبان 1389 هـ) .

85) يقصد بها غرناطة العاصمة .

ومن ذلــك فى وصــف :

69 ــ أبى محمد ابن المرابع (86)
من أهل بليــش (87)

طويل القوادم والخوافى ، كلف ــ على كبر سنه ــ بعقائل القوافى . شاب فى الادب وشب ونشق ريح البيان لما هب . فجاور رقيقه وجزله ، وأجاد جده واحكم هزله . فان مدح صدح ، وان وصف انصف ، وان

---

(86) هو الشاعر الغرناطى أبو محمد عبد الله بن عبد الله الازدى ، المعروف بابن المرابع من مدينة بليش مالقة ، وقد تناوله ابن الخطيب فى احاطته ، حيث ترجم له بافاضة ، واورد الرسائل والقصائد التى تبودلت بينهما يومئذ ، وهو من كتاب المقامة المشهورين فى ذلك العصر ، وقد نقل له المؤلف مقامة ساسانية، عرفت فيما بعد بمقامة العيد ، كان قد كتبها الى حاكم مالقة الرئيس « أبــى سعيد فرج بن نصر » بغرض الحصول على اضحية العيد . وتتضمن هذه المقامة قصة قصيرة بطلها رجل متسول من بنى ساسان بارع الحيلة ، قد صمم العزم يوما على ان يحصل على كبش من الحاكم ، وبذل فى سبيل مطلبه هذا جهودا شتى ومضنية ، الامر الذى يفسر لنا هنا حياة الكد التى صادفها المترجم لــه من حياته ، كل هذا فى اسلوب طريف ، زانه السجع ، وتخللته الفكاهة . توفى هذا الشاعر بوباء الطاعون الجارف الذى اجتاح منطقة البحر المتوسط وقتئذ ، ودفن ببلدته أواخر عام 750 هـ .
راجع : ابن الخطيب فى مخطوطة « الاحاطة » نسخة الاسكوريال 1673 لوحة 227 ــ 230 ، وكذا المقرى فى « نفح الطيب » ج 6 ص 315 ــ 136 ج 8 ص 209 ــ 210 .

(87) بلدة متوسطة تقع قرب مالقة (على مسافة 34 كلم) ، وتنسب اليها ، وتوجد اخرى تسمى « بليش الشقراء » ، وهى قرب « لورقة » كما ان هناك اخــرى قريبة منها تسمى « بليش البيضاء » ، وبهذه المناسبة نذكر أن ابن الخطيب وصف الثانية فى كتابه « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهــد والديــار » بأنهــا ثغــر مجاور لحدود مدينة لورقة التى كان العدو يومئذ قد استولى عليها . واما بليش مالقة فقد وصفها المؤلف أيضا فى نفس المعيار . واما الثالثة فلم ترد لديه ، فربما استحدثت من بعــــد .

عصف قصف . وان انشأ دون ، وتقلب فى أفانين البلاغة وتلون ــ أفسد مــا شــاء وكــون .

فهو شيخ الطريقة الادبية وفتاها ، وخطيب محافلها (100 . ب) كلما أتاها . لا يتوقف عليه من أغراضها غرض ، ولا يضيع لديه منهــا مفترض . ولم تزل بروقه تتألق ومعانيه بأذيال الاحسان تتعلق ــ حتى برز فى أبطال الكلام وفرسانه ، وذعرت القلوب لسطوة لسانه . وألقت اليه الصناعة زمامها ، ووقفت عليه أحكامها . فشعشع مداحها ونبــــه خدامها . وأطلع نجومها ، وأرسل رجومها . وعبر البحر ــ لهذا العهد ــ منتجعا بشعره ، ومنفقا ــ فى سوق الكساد ــ من سعره . فأبرق وأرعد ، وحذر وتوعد . وبلغ جهد امكانه فى التعريف بمكانه ، فما حرك ولا هز ، وان ذل فى طلب الرفد فقد عز .

وما برح أن رجع الى وطنه الذى اعتاده ، رجوع الحديث الــى قتــــــاده .

وقد أثبت من نزعاته وبعض مخترعاته ما يدل على سعة باعه ، ونهضة ذراعه . وألمحت بشىء من سبب رحلته واغترابه ، وعــودة مرهفه الــى قرابــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

70 ــ ابى عبد الله المتأهل المعروف بعماتى من اهــل وادى آش

(101 : م) ناظم أبيات ، وموضح غرر وشيات ، وصاحب توقيعات واشارات ، ذوات اشارات . اشتهر ببلده اشتهار الشيب بالمفارق، وتألق

بأفقه تالق البارق . دخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه (88) بعد انتثار سلكه ، وخروج الحضرة من ملكه ، واستقراره بوادى آش مروع البال ، متعللا بقصيات الآمال .

ومن ذلك فى وصف :

71 ــ ابى المؤلف ــ رحمه الله (89)

ان طال الكلام ، وجمحت الاقلام ــ كنت كما قيل . ومادح نفسه

---

88) يقصد المؤلف بالملك المخلوع السلطان محمد الخامس الغنى بالله ثامن ملوك بنى الاحمر فقد اندلعت الثورة ضده فى غرناطة ، تزعمها اخوه الامير اسماعيل ، وذلك فى رمضان من عام 760 هـ (1359 م) فلجأ السلطان المخلوع الى وادى آش ومعه وزيره ابن الخطيب ، ومنها التحق بفاس لاجئا سياسيا لدى بنى مرين فى 6 محرم 761 هـ (8 ديسمبر 1359 م) ثم استرد الغنى بالله ملكه عام 762 هـ (1361 م) وبقى متربعا على العرش حتى توفى عام 793 هـ (1392 م) .
راجع : الاحاطة ، مخطوطة الاسكوريال 1673 لوحة 182 ، واللمحة البدرية ص 101 ، ثم « نزهة البصائر والابصار » للقاضى النباهى ، حيث حقق الجزء الخاص بدولة بنى نصر المستشرق الاسبانى « اميليو لافونتى الكانترا » ص 63 طبعة مدريد 1859 م .

89) اخبر عنه المؤلف فى « الاحاطة » بانه ولد فى غرناطة عام 672 هـ (1273 م) واستقر بها حينا ، ثم عاد الى « لوشة » مقر الاسرة ، ثم رجع الى غرناطة ، حيث التحق بخدمة السلطان ابى الوليد اسماعيل الاول النصرى ، فهو بهذا « غرناطى الولادة والاستيطان ، لوشى الاصل ، طليطلية قرطبية » ، ولما توفى هذا السلطان ، وخلفه ابنه السلطان عبد الله محمد الرابع التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته ايضا ، ثم بديوان اخيه السلطان ابى الحجاج يوسف الاول ، حيث عاصر الرئيس ابن الجياب الذى منحه لقب الوزارة .
ويعتبر المترجم له من اكابر العلماء والخاصة ، ممن اصطفاهم السلطان ابو الوليد ليعمر بهم بلاطه، ضمن نخبة اخرى من الرؤساء والعلماء، الذين اشرفوا على تربية ابناء السلطان ، فغرسوا فيهم بذور العلم والادب ، وامدوهم بخبراتهم وتجاربهم ، كما تولوا لهم تسيير الشؤون بعد أبيهم .
توفى والد ابن الخطيب هذا قتيلا مع ولده الاكبر عبد الله ــ اخى لسان الدين ــ فى معركة طريف الشهيرة ، فى جمادى الاول 741 هـ (اكتوبر 1340 م) .
راجع : المقرى فى « نفح الطيب » جـ 6 ص 319 وما بعدها ، جـ 8 ص 40 وما بعدها .

يقربها السلام ، وان أحجمت ـ فما استرسلت فى الثنا ولا ألجمت ـ أضعت الحقوق ، وقاربت العقوق . هذا وله جرت طير البلاغة من أوكاره ، وحييته بعيون البيان وابكاره ـ لما قضيت بعد ، ولا قلت الا بالذى علمت سعـد (90) ، فقد كان ذمر حزم (91) ورجل رجـاء وازم (92) .

كان ببلده قطبه الذى عليه المـدار ، وزعيمه الذى لـه الايراد والاصدار . وله المقام (101 . ب) النصرى وسائل قربى ، ومتات أناف أو أربى . ولما حل الملك الاسماعيلى (93) بذلك القطر ، ولاح بأفقه لياح هلال الفطر ـ نزع الى فريقه ، وجعل تلك الايالة قرى طريقه . وصحب ركابه الى قرارة ملكه ، ومحط فلكه . فقربه وادناه ، وشيد له العز وبناه . ولم تزل سماؤه تجوده ، وروضه يروضه جوده . واصطنعه خلفه من بعده ، الى أن دعاه الاجل لوعده . ففقدته بكاينة طريف (94) ؛ جبـر الله عثارها ، وعجل آثارهـا .

---

90) مثل عربى يضرب عند اسناد الاخبار الى مصادرها الوثيقة .

91) رجل ذمـر : بفتح فسكون اى : شجاع داهيـة .

92) رجل أزم . بفتح فسكون اى : يبـرز فى الازمـات .

93) هو السلطان أبو الوليد اسماعيل النصرى ، خامس ملوك بنى الاحمر . تولى السلطة فى شوال من عام 713 هـ (ابريل 1313 م) ، وقتل بيد ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة لاسباب شخصية فى اواخر رجب 725 هـ (يونيه 1325 م) ، ويذكر المؤرخون عن هذا السلطان انه شدد النكير على الخارجين عن تقاليد الاسلام ، فمن ذلك تحريمه على النساء الجلوس على الموائد مـع الرجال فى الحفلات العامة ، ومنعه للمسكرات البتة ، الى غير ذلك .

94) تعرف هذه المعركة فى الرواية الاسلامية بـ « موقعة طريف » وسماها ابـن الخطيب فى مواطن اخرى بـ « الوقيعة العظمى » ، وتعرف فى الرواية الاسبانية بـ « معركة سالادو » ، وقد حدثت بين الاسبان والمتطوعين من نصارى أوربا من جهة ، وبين المغاربة والاندلسيين من جهة أخرى حيث رابط الفريقان عند نهر سالادو قرب طريف ، وتمخض الاشتباك المحتوم عن فوز الاسبان بقيادة ملكهم الفونسو السادس ، وهزم المغاربة ؛ فعاد السلطان ابو الحسن المرينى الـى المغرب ، كما قفل السلطان يوسف الاول أبو الحجاج راجعا الى عاصمة ملكه غرناطة ، ومحص الله المسلمين .

حدث خطيب الجامع الاعظم ، وهو ما هو من وفور العقل ، وصحة النقل ، قال « مررت بأبيك بعدما تمت الكسرة ، وخذلت تلك الاسرة ، وقد كفـا بأخيك الطرف ، وعرض عليه الحمام الصرف . والشيخ لم تزل قدمه ، ولا راعه عدمه . ولما يئس من الخلاص وطلابه ، صرفنى وقال : أنا أولى به . فقضى سعيدا شهيدا ، لم يستفزه المقول ولم يثنه ، ولا ارتضى عـار الفـرار عن ابنـه » .

وكان له فى الادب فريضة ، وفى النادرة العذبة منادح عريضة ، مع انتحالـه (102 . م) واشتغاله بحاله .

ومن ذلـك فى وصـف :

72 ــ أبى بكر البلوى ــ من أهل المرية

بحر لرسوم المكارم ، ذو هزة للفضائل كهزة الصارم . كـان ــ رحمه الله ــ ببلده فى الاحسان ، بمنزلة العين من جسد الانسان ، والنطق من اللسان ، والبشاشة من الصور الحسان . ان ضل السماح فبيته مأواه ، أوضل الضيف فهو أبو مثواه . الى نفس آخذة بأقاصى الكمال ، وشمائل الطف من أنفاس الصبا والشمال ، وأدب أشهى الى القلوب مـن الآمـال .

قدم على الحضرة لاول الدولة ، رداء حـق الطاعة ، والانتظام فى الجمـاعـــة .

وعلى الاثر سقطت كل من طريف والجزيرة الخضراء وقلعة بنى سعيد فى قبضة النصارى ، وكاد الاسبان يستولون على جبل طارق . وتجدر الاشارة الى ان هذه المعركة كانت فاصلة فى تاريخ الجهاد المرينى بالاندلس ، بحيث لم يتسن للمغاربة الجواز الى هذه البلاد فى صورة كتائب نظامية أو الاشتباك فـى معارك بعدئذ مع النصارى ، وكانت هذه الموقعة فى جمادى الاولى عام 741 هـ (اكتوبر 1340 م) .

راجع : يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة ــ للمحقق ص 134 ــ 140 نشـر الدار القومية للتوزيع 1969 بالقاهرة .

ومن ذلــك فى وصــف :

73 ــ أبــى عبد اللــه السـراج

طبيب ماهر ، وروض علم تفتحت فيه للفنون أزاهر . درج مــن الشظف الى السعة وتحلى بحلية العلم فرفعه . فبلغ الغاية التى لطف محلها ، وفاء عليه ظلها ، وتغلبت عليه الايام فاعتورته صروفها (95) وتكدر عنده معروفها ، (102 . ب) لما ذكرته فى كتاب طرفة العصر ، فى اخبار دول بنى نصر . ثم تداركت صلاح حاله ، ومتعته بطيب القرار بعد ارتحاله . فاستقرت داره ، واستقام ــ على قطب العناية ــ مـــــداره .

وكان ــ رحمه الله ــ كثير الدعابة ، وما شانه ذلك ولا عابه . وله نظــم ينخــرط فى سلك الانطباع ، ويخبر بطول الباع .

ومن ذلــك فى وصــف :

74 ــ أبى زكريا يحيى بن هذيل التجيبى (96)

درة بين الناس مغفلة ، وخزانة على كل فائدة مقفلة ، وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة . أبرع من رتع التعاليم وعلمها ، وركض فى الالواح قلمها ، وانتقن من صور الهيئة ومثلها ، وأسس قواعد البراهين بين الناس وأثلها (97) . وأعرف من زاول شكاية ، ودفع عن جســد نكاية . الى غير ذلك من المشاركة فى العلوم ، والوصول من المجهول الى

---

95) اعتورتــه صروفهــا : تداولت عليه احداثهــا .

96) هو الشيخ أبو زكرياء يحيى بن هذيل ، من اشهر العلماء المشتغلين بالطب والفلسفة والعلوم والرياضيات ، ويعرف لذلك بحكيم غرناطة وفيلسوفها ، وهو احد شيوخ لسان الدين ابن الخطيب . توفى ــ رحمه الله ــ عام 753 هـ (1355 م) .

97) اثلها : بفتح الهمزة وتشديد الثاء مع الفتح بمعنى : أصلهــا .

المعلوم ، والمحاضرة المستقرة للحلوم (98) ، والدعابة التى ما خالـــع العذار فيها بالمنوم . فما شئت من نفس عذبة الشيم ، وأخلاق كالزهر من بعد الديـــم (99) ومحاضرة تتحف المجالس (103 . م) والمحاضر ومذاكرة يروق النواظر زهرها الناضـــر .

وله أدب ذهب فى الاجادة كل مذهب ، وارتدى من البلاغة بكـــل رداء مذهب . ومعان تراودها الخواطر فلا تصد ، وتحييها النفوس فـــلا ترد . والادب نقطة من حوضه ، وزهرة من أزهار روضه .

وسيمر له ــ فى هذا الديوان ــ ما يبهر العقول ، ويحاسن بروائه ورائق بهائه الفرنـــد المصقول .

75 ــ أبـــى عمرو بن عبـــاد
مـــن أهـــل رنـــدة (100)

صوفى محقق ، ومريد عن صبوح المحبة مرقق . كان ببلده ــ رحمه الله ــ عينا من أعيانها ، وقريع بيت من بيون احسانها . شام للغرب بارقا ، وأصبح لدنياه مفارقا ، فنزح عن بلاده ، وخرج عن طريفه وتلاده ، وشمر لمقارعة الهوى وجلاده . وخاض بحار تلك الاهوال ، حتى صار معدودا فى أهل الاحوال . وظهرت عليه سمات الحضرة ، وسطعت لـــه أنوار الكرامة الالاهية . ولم يزل يعبر عن وجده ، ويكنى بحاجره ونجده ، حتى حفظت (103 . ب) أقواله ، واشتهرت أحواله .

---

98) الحلوم بضم الحاء : العقـــــول .

99) الديـــم . بتشديد الدال مع الكسر بمعنى : قطرات المطر .

000) ما زالت المدينة تحمل نفس الاسم بالاسبانية Ronda تقع غرب مالقة ، وقد كانت من اهم القواعد الاندلسية .

ومن ذلــك فى وصــف :

76 ــ أبى الوليد بن هانى ــ من أهل غرناطة

شاعر ينحت من طود ، وماطر صاب من الكلام بجود (101) . عدل عن اللفظ القريب الحوشى الغريب . فاذا أجهد طبعه ، ووصف حيه وربعه ، وكيف ظعن القطان ، وتغيرت الاوطان ــ قلت : حجازيا فصيحا ، أو تميميا ينشق للبيان ريحا ، ونجديا شكــا بثا وتبريحا .

نشأ ببلده غرناطة مطلع نور حسبه الباهر ، وروضة بيته الانيق الازاهر . فشأى حلبة الطلب ، وفاز بالغلب ، واجتهد وعكف ، واستمطر وابل العلم لما وكف ، حتى جلى من المشكلات كل حالك ، واستظهــر موطأ مالك . ثم رام السفارة بعزمه ، وخاض القفار بجرفه وحزمه . واستقر بعد اعتساف المجاهل ، ومزاحمة المناهل ، وخوض العرار ، والبشام بحماة الشام (102) واتخذها دارا ، وارتضاها لفضله مدارا .

---

101) جــود . بفتــح فسكون ، مصدره جاد ، بمعنى : النيــل .

102) حمــاة : مدينة لها شهرتها واصالتها فى سوريا ، تقع على نهر العاصى ، احدى المراكز التجارية، تتبعها كمحافظة من المحافظات سلمية ومصياف، ويبلغ تعداد سكانها حوالى 420.000 نسمة ، ويرجع تاريخها الى القرن الالــف الخامس قبل الميلاد تقريبا ، احتلها الميتاليون عام 1.550 ق. م. ، ثم الآراميون نحو 1.100 ، ثم دمرها الحيثيون ثم الآشوريون عام 720 ق. م. ، ولكن الحياة عادت اليها فى عصر السلوقيين ، الذين دعوها « ايبقانيا » ، حتى احتلها الرومان عام 64 ق. م. ، وتلاهم البيزنطيون ، وأخيرا دخلت التاريخ العربى عندما فتحها القائد أبو عبيدة عــام 639 م .
هذا ، وتشتهر حماة بنواعيرها ، ومن آثارها المعروفة الجامع الكبير ، وجامع أبى الفــــداء .
راجع : د. مصطفى زياده وآخرين فى « تاريخ العالم العربى وحضارتــه » ص 238 وما بعدهــا . . .

ومن ذلك فى وصف :

77 ــ أبى عبد الله الكفيف ــ من أهل مالقة

ضرير زاد نور بصره نور قلبه فاجتمعا ، وكفيف سارت الامثال بذكره فصدق مرأى منه مستمعا . صادق اللهجة ، سلك سبيل الفضل وانتهج نهجه . ادهن من رواد المشكلات وافترعها ، وصادم الغوامض فصرعها . وله فى علم اللسان قدم راسخة ، وفى أحكام المعانى آية ناسخة . وكان معرى عصره ووارث علمه الذى يعجز عن حصره . وله فى العلوم العقلية ذوق ، والى تلك الفنون شوق ، نسبته الالسن ، واستقبح منه ما يحسن . ونظمه دون قدره ، ومعانيه تكثر عن نفثات صدره .

ومن ذلك فى وصف :

78 ــ الاديب الحاج الرحال ابى اسحاق الساحلى

جواب الآفاق ، ومحالف الرفاق ، ومنفق سعر الشعر كل النفاق . رفع ببلده راية للادب لا تحجم وأصبح نسيج (104 . ب) وحده فيما يسدى ويلجم . فان نسب جرى قلم ما كتب ، وان مدح وقدح من أنوار فتنته ما قدح ــ حرك الجامد ، ونظم الجمان للمحامد . وان وصف أورثا ، غبر فى وجوه السوابق وحثا .

ولما أنف نكساد سوقه وضياع حتوقه ــ أخذ بالعزم ، وأدخل على تعلاته عامل الجزم . ولم يزل يسقط على الدول سقوط الغيث ، ويحتل كناس الظبى وغاب الليث . ويركض النجائب ، ويتتبع العجائب ، حتى استضاف بمصر الكرام ، وشاهد البرابى والاهرام ، ورمى

بعزمته الشام ، فاحتل ثغوره المحوطة ، ودخل دمشق وتفيأ الغوطة (103) ثم عاجلها بالفراق ، وتوجه الى العراق ، فحيا بالسلام مدينة السلام (104) وأورد بالرافدين (105) رواحله ، ورأى اليمن وسواحله .

ثم عدل الى الحقيقة عـن المجاز ، وتوجه الى مثابة الحجـاز ، فاستلم الركن والحجر ، وزار الترب الكريـم لما صدر . وتعـرف فى مجتمع الوفود بملك السود ، فغمره بارفاده ، واستصحبه الى بلاده . فاستقر بأول اقاليم الارض ، واقصى ما يعمر من هذا العرض . فحل بهـا (105 . أ) محل الخمر فى القار ، والنور فى سواد الابصار . وتقيد بالاحسان ، وان كان غريب الوجه واليـد واللسان .

وقد أثبت من شعره ما يشهد بجلالة آدابه ، وتعلق الاحسـان بأهـدابـه .

ومن ذلـك فى وصـف :

79 ـ القائد أبى جعفر أحمد بن خيـر .

قائد مليح الشيبة ، ممتزج المباسطة بالهيبة . يجمع بين الدعابة والوقار ، ويدير من الفكاهة كؤوسا تزرى بكريم العقار . وله أصالة قامت على العلم أركانها . واشتهر بحمص ـ أعادها الله ـ مكانها ، ووسائل الى السلف الكريم عظم ذمامها ، وارتضع أخلافها بين القيادة وأعمالها .

---

103) الغوطة : هى مجموعة البساتين المحيطة بدمشق ، وترتوى من نهر بردى ، تشتهر بوفرة وجودة مشمشها ، وكانت هذه الجنات قديما سكنا للغساسنة .

104) مدينـة السـلام : بغـداد .

105) الـرافـدان : دجلـة والفـرات .

تناول خطة المدينة فأجراها ، وراش نبل الاحكام وبراها ، وبشر بشار أولى الفساد وفراها ، وفرق بين الجفون وكراها . فكم عاشق انتجز للوصول ميعادا ، وارتقب للسعد اسعادا . وظفر بمثير غرامه ، وموقد ضرامه . فى مجلس تجلت فيه عروس الكناس ، على غرس الورد والآس وعند سجود الابريق ، ومزج المدامة بالريق — وثب ابن خير هذا وثوب الليث ، وسقط عليه سقوط العيث ، لا سقوط الغيث ، فراع غزال ذلك الكناس . حتى ذعرت القلوب لسطوته ، وتشوفت الآذان الى احساس خطوته . كل ذلك بعدل ميزان قائم ، وجزالة لا يثنيها فى الحق لائم . وبسالة تشهد المواقع بمضائها ، وتثنى عليها السيوف عند انتضائها .

واصطنعه المقام اليوسفى (106) — اعلاه الله وارتضاه — للامانة العظمى ، وقلده حفظ أبواب معقله الاسمى . فأعطى القوس باريا ، وقلد الخطة حساما فاريا . وهو لطيف المحل لديه ، حظى بين يديه ، يستظرف نادرته العذبة ، ويبدى له القبول والمحبة .

وله أدب عذب الجانب ، سهل المذانب ، لا يزال ينفث بضربه ، ويستتر عند نظمه عوائد طربه .

ومن ذلك فى وصف :

80 — أبى جعفر بن غفرون — من الجند

(106 : أ) نير ما طلع حتى أفل ، وماجد فى حلل الفضل رفل . ألطف الناس فى معاشرة الاكفاء ، وثانى . . . ابن عاديا فى الوفاء

---

106) المقام اليوسفى : نسبة الى يوسف الاول أبو الحجاج ابن الاحمر سلطان غرناطة وسابع ملوك بنى نصر (733 — 755 هـ = 1333 — 1354 م) .

الى حلم لا يضيق له صدر ، وعهد لا يتطرق لحماه نكث ولا غدر . ونفس عظيمة النفاسة ، واخلاق مولعة بذكر الحماســة .

توجه مع الحصة الى حراسة ثغر بيرة (107) وقد اشتعلت نيرانه ، وكلب جيرانه وكانت من المسلمين جولة فى بعض المواقف ، ميز الله بهــا الخاص من الزائف . ولم يرض حاجبنا ــ رحمه الله ــ على الفرار أمام الكفار ، ولم يزل يقدم اقدام الغضنفر ، ويقيم هامته مقام المغفر (108) . فقضى شهيدا مقداما ، وشرب للحمام كأسا كانت لها السعادة مداما .

ولم أظفر من كلامه الا بنزر ، ولا أحطت من مده الا على جزر .

ومن ذلــك فى وصــف :

81 ــ أبى جعفر الروية ــ من أهل بليش

ناظم الفقر الشاردة ، ومنتضى المعانى الصادرة والواردة ، وصاحب

---

107) بيــرة : تدعى الآن فى الاسبانية Vera تقع شمال شرق غرناطة ، وهى بلدة مرتفعة تشرف على ساحل البحر المتوسط ، مما اكسبها اهمية بحرية حربيــــة .

وصفها ابن الخطيب فى « معيار الاختيار » مشيرا الى مجاورتها للنصارى ، وما كان من تعرضها لمناوشاتهم ، وانتهاك حرماتها بين حين وآخر ، حين يقول « . . الا انها قليلة المطر مقيمة على الخطر ، مثلومة الاعراض والاسوار ، مهطعة لداعى البوار» هذا بالاضافة الى فتنتها بالداخل «قليلة الوجوه والصدور، كبيرة المشاجرة والشرور ، برها انذر بن برها فى المعتمر والبور ، وزهد اهلها فى الصلاة شائع فى الجمهور » .

108) المغفر والمغفرة : جمع مغافر ، عبارة عن زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة لاتقــاء الضربــات .

قريحة ملتهبة الوقود ، وبديهية منتظمة العقود ، وبيت ينمى الى مجد ، وأصالة أطيب من عرار نجد (109) .

نشأ ببلده (106 . ب) بليش قرارة ميلاده ، مقتصرا على انتجاع تلاده . صان بذلك وجهه عن اراقة مائه ، وهتك حجاب حيائه .

ولم أظفر من شعره ــ على استرساله ــ الا بقوله يهنى السلطان ــ أيده الله ــ بأحد أولاده .

ومن ذلــك فى وصــف :

82 ــ أبى عبد الله العبدونى المالقى

أديب نار ذكائه يتوقد ، وعارض لا يعترض كلامه ولا ينفد . وأما الهزل فهو طريقته المثلى ، التى ركض فى ميدانها وجلى ، وطلع فى أفقها وتجلى . فأصبح علم أعلامها ، وعابر أحلامها . ان أخذ بها فى وصــف الكاس ، وذكر الورد والآس ، والم بالربيع وفصله ، والحبيب ووصله والروض وطيبه ، والغمام وتقطيبه ــ شق الجيوب طربا ، وعل النفوس أريا وضربــا (110) . وان اشفق لاعتلال العشية ، فى فرش الربيــع الموشيــة ، ثــم تعداها الى وصــف الصبوح ، وأجهــز على الــزق المجروح ، وأشار الى نغمات الورق ، وقد اشتعلت فى عنبر الليل نــار البرق ، وطلعت بنود الصباح (107 . أ) فى شرفات الشرق ــ سلــب

---

109) العرار : واحدة عرارة ، وهو بهار ناعم اصفر طيب الرائحة . وعرار نجد الذى يلمح اليه المؤلف هو الذى عناه الشاعر قديما بقوله :

تمتــع من شميــم عــرار نجــد فمــا بعــد العشيــة مــن عــرار

110) الأرى : بفتح الهمزة وسكون الراء مصدر أرى ، وأرى النحل ، عمل العسل فالأرى (بفتح الهمزة وسكون الراء هو العسل) .

الحليم وقاره ، وذكر الخليع كاسه وعقاره . وحرك الاشواق بعد سكونها ، وأخرجها من وكونها ، بلسان يتزاحم على مورده الخيال ، ويتدفق من حافاته الادب السيال . وبيان يقيم أود المعانى ، ويشيد مصانـــع اللفظ محكمة المبانى ، ويكسو حلل الاحسان جسوم المثالث والمثانى . الى نادرة لمثلها يشار ، ومحاضرة يجنى بها الشهد ويثار .

وقد أثبت من شعره ــ وان كان لا يتعاطاه الا قليلا ، ولا يجاوزه الا تعليلا ــ أبياتا لا تخلو من مسحة جمال على صفاتها ، وهبة طيب تنم فى نفحـــاتهـــا .

ومن ذلـــك فى وصـــف :

83 ــ أبى القاسم الشريف الحسنى (111)

ما شئت من قدرة وايد ، ليس من عمرو ولا زيد . أكرم من عمر للبلاغة مجالا ، وأطوع من دعا أبيات المعانى فجاءت عجالا ، وأبرع من أدار كؤوس البيان المعتق ، ولعب بأطراف الكلام المشقق ، روية وارتجالا ، وأجل من أشار اليه الشاعر بقولـــه :

« وخير الشعـــر أكرمـــه رجـــالا » .

قدم على (107 . ب) الحضرة هذا القاضى الشريف ، وقذف بدرته النفيسة لها الريف . روض أدب وظرف ، لما شئت من حســـن

---

111) هو الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله الحسنى السبتى . ولد بسبتة فى 6 ربيع الاول 697 هـ (22 ديسمبر 1297 م) حيث نشأ بها ، وقرأ القرآن ، وتملأ من العلوم وأخذ بحظ وافر من المنظوم والمنثور ، ثم انتقل الى غرناطة ، حيث التقى بشيخ الكتاب ابن الجياب ، الذى ضمه الى الكتابة الديوانية ، وهو أحد

وعرف . يدير من الحاضرة جريالا ، ويسحب للبدائع أذيالا . ذا نفس كريمة ، وأخلاق كالروض غب انسكاب ديمة . وقعد بمسجدها فدرس وحلق ، وسطع نوره فى أفقها وتألق . واستأثرت به الكتابة السلطانية لاول وروده ، وسبغت عليه من الاحسان سوابغ بروده . وترشح بخلاله المرتضاه ، الـى قضاء القضاة . وهـو ـ الآن ـ قاضى الجماعـة وامامها (123) ، وقيم الشريعة الذى فى يديه زمامها ، بلغت به تلك

شيوخ ابن الخطيب المعدودين فى مفاخر صفحاته العلمية .
تقدم للقضاء فى انحاء شتى من الاندلس ، ثم اختير قاضيا للجماعة بغرناطة ، وخطيبا للمسجد الاعظم فترة من الوقت ، ثم عزل ، ثم اعيد مرة اخرى ، كما جدد السلطان الغنى بالله الولاية له بعد وفاة ابيه السلطان ابى الحجاج . وللمترجم له مؤلفات ما زال معظمها مخطوطا لم ير النور بعد ، مثل « الجواهر الثمينة ، فى صفات القاضى العادل » وكذا مؤلفه الضخم « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » شرح بها مقصورة اديب المغرب الامام ابى الحسن محمد القرطاجنى التى مدح بها المستنصر بالله ابى عبد الله محمد الحفصى ، وذلك فى مجلدين كبيريـــن .
توفى هذا الفقيه الكبير بغرناطة فى 21 شعبان 760 هـ (18 يوليو 1359 م) عـن 63 عامـــا .
راجع : يوسف الاول ابن الاحمر للمحقق ص 78 ــ 79 (لجنة البيان العربى بالقاهرة 1969 م) .

112) جرت عادة الاندلسيين أن يختاروا من بين قضاة المدن « قاضيا للجماعة » وهو المعروف بـــ « قاضى العاصمة » او « قاضى الحضرة الملكية » ويعد منصبه من ارفع المناصب الدينية ، ولهذا يراعى فى اختيار صاحبه السمعة الطيبة ، والكفاءة والتبريز فى ميدان القضاء ، الى جانب التاليف فى هذا ، والشهرة فى الفتاوى ، فلم يكن ليشغل هذا المنصب سوى العلماء المشهورين ، أو الفقهاء الكبار ، مثل الشريف السبتى ، وابى البركات بن الحاج البلفيقى .
ويقوم قاضى القضاء عادة بالخطابة فى المسجد الاعظم بالعاصمة ، ويتم هذا الاختيار السامى بمقتضى ظهير ملكى خاص ، حيث تقام حفلة تنصيبه بالمسجد الاعظم أو مسجد الحمراء ، وقد أورد ابن الخطيب فى كل من « الاحاطة واللمحة البدرية » أسماء من تولوا القضاء بالحضرة الملكية ، وخاصة من عاصرهم ، مرتبا ذكرهم غالبا حسب تاريخ اعتلائهم هذا المنصب .
راجع : المصدر السابق ، ص 74 .

المثابة آمالها ، واستأنفت بعد الكبرة جمالها ، وقالت له هيت لك (113) فلم تكن تصلح الا له ، ولم يكن يصلح الا لها . وألقت له الخطابة قيادها ، فأنسى قسها ، ووسم بعد الاغفال بسيمة الاحتفال جمعها واعيادها . وأما شعره فينازع الرضى نسيبه ، فخره وتشبيبه .

(108 : 1) ومن ذلك فى وصف :

84 ـ الشريف أبى عبد الله بن الحسن الحسينى

كريم الانتماء ، مستظل بأغصان الشجرة الهاشمية الممتدة الافياء ، التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء (114) . من رجل سليم الضمير ، ذو نفس أصفى من الماء النمير وبشهامة تثنى عليها الرجال ، اذا ضاق المجال ، وتقوضت الاجال ، وله فى الشعر طبع يشهد بعروبة أصوله ، ومضاء نصوله .

وقد أثبت من شعره ما يتضح فى البلاغة سبيله ، ويشهد بعتق الجواد صهيله .

ومن ذلك فى وصف :

85 ـ أبى القاسم بن الرئيس أبى زكرياء العزفى (115)

فرع تأود من الرياسة فى دوحة ، وتردد ما بين غدوة فى المجد

---

113) اقتباسا من قوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب ، وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله ، انه ربى أحسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون » . سورة يوسف ، آية 23 .

114) اقتباسا من قوله تعالى : « الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء » سورة ابراهيم ، آية : 24 .

115) نسبة الى بنى العزفى المتأمرين بسبتة فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

وروحه . نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله (116) ، والدهر ييسر أمله الاقصى ويسهله . حتى اتسقت أسباب سعده ، وانتهت اليه رياسة سلفه من بعده ، (108 : ب) فألقت اليه رحالها وحطت ، ومتعته بقربها بعدما شطحت وشطت . ثم كلح له الدهر بعدما تبسم ، وعاد زعزعا نسيمه الذى يتنسم . وعاق هلاله عن تمه ، ما كان من تغلب ابن عمه . واستقر بهذه البلاد نازح الدار ، بحكم الاقدار ، وان كان نبيه المكانة والمقدار . وجرت عليه جراية واسعة ، ورعاية متتابعة .

وله أدب كالروض باكرته الغمائم ، والزهر تفتحت منه الكمائم . ورفع منه راية خافقة ، وأقام له سوقا نافقة . وعلى تدفق أنهاره ، وكثرة نظمه واشتهاره — فلم اظفر منه الا باليسير التافه ، بعد انصرافه .

ومن ذلك فى وصف :

86 — أبى عبد الله بن الشيخ الحاجب بتونس أبى الحسن بن عمر

غرس نعمة هامية وربى رتبة سامية . تقلد أبوه حجابة الخلافة بتونس — وهى من سمو المكان ، ورفعة الشأن — فصرف اليه الوجوه ، ولم يبق الا من يخافه أو يرجوه . (109 : 1) وبلغ من ابنه هذا — مدة ذلك الشرف — الغاية فى الترف . ثم قلب لهم الدهر ظهر المجن ، واشتد بهم الخمار عند فراغ الدن . وبدلتهم الايام بزتها ، واسترجعت عزتها . ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوب مبيرة ، وشدة فى البحر كبيرة . فامتزج بسكانه وقطانه ، ونال من اللذات ما لم ينله فى أوطانه . واكتسب

---

116) العل : (وبفتح العين) شرب الخمر المرة تلو المرة . والنهل : (بتشديد النون مع الفتح) أول الشرب .

الشمائل العذاب ، وكان كابن الجهم بعث الى الرصافة (117) ليرق فـــــــذاب .

ثم حوم على وطنه تحويم الطائر ، وألم بهذه البلاد المام الخيال الزائر . فاغتنمت صفقة وده لحين وروده ، وخطبت موالاته علـــى انقباضـــه وشـــروده .

فحططت منه على درة تقتـــنى ، حديقة طيبة الجنا . فياالله من ساعات أنس قطعناها ، ولذات اطاعتنا واطعناها ! ! ما كانت الا كأحلام نائم ، أو افاقة هائم ! رحلن وما ابقين الا الاسى ، والتعلل بعسى . .

والفقيه أبو عبد الله هذا ذو فهم جديد ، وفضل سديد ، وباع من الادب مديد . ولو تفرغ للتحصيل ــ بمقتضى (109 : ب) طبعه الاصيل ــ لعلت قداحه ، وكان بحرا لا يساجل ضحضاحه .

---

117) مدينة فى بادية الشام ، تبعد بنحو اربعين كيلومترا من نهر الفرات ، لهـــا اصالتها وشهرتها ، حيث وردت فى الكتب والآثار القديمة ، وقد سكنهـــا الغساسنة قبل الفتح الاسلامى ، كما اقام بها الخليفة الاموى هشام بن عبـــد الملك (724 ــ 743 هـ) .

اما ابن الجهم هذا فهو على بن السلمى القرشى ، كان شاعرا مجيدا ، سخـــر شطرا كبيرا من شعره فى هجاء آل أبى طالب والاغراء بهم ، فسخط عليـــه الخليفة المتوكل لذلك ولكثرة سعايته بين القوم ، فنفاه الى خراسان ، وهناك قبض عليه طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وصلبه يوما كاملا مجردا ثم حبسه ، فقال شعرا فيما حدث له من صلب وحبس ، توفى مقتولا عام 863 م بيد أعراب من بنى كلب ، وكان فى طريقه من حلب الى العراق . هذا وينسب اليـــه ــ بهذه المناسبة ــ قولـــــه :

عيـــون المهـــا بين الرصافـــة والجســـر
جلبـــن الهوى مـــن حيث ادرى ولا ادرى

ومن ذلــك فى وصــف :

87 ــ أبى عبد الله ابن الحاجب بتونس
أبى عبد الله بن العشاب

جواد لا يتعاطى طلقة ، ولا يماثل بالفجر فلقة . كانت لابيه ــ رحمه الله ــ من الدول التونسية منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة فى العقــد والحل . ولم تزل تسمو به قدم النجابة ، من العمل الى الحجابــة . ونشأ ابنه هذا مفدى بالانفس والعيون ، مقضى الديون ، حالا من الضمائر محل الظنون . والدهر ذو الوان ، ومارق حرب أوان ، والايام كرات تتلقف ، وأحوال لا تتوقف . فألوى بهم الدهر وانحى ، وولد غمام جوه بعقب ما له صحا . وشملهم الاعتقال ، وتعاورتهم النوب الثقال ، واستقرت بآخره بالمشرق ركابه ، وحطت به اقتابه . فحج واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعمر . وعكف على كتاب الله فجود الحروف ، (110 : أ) وقرأ الخلف المعروف . وقيد واسند ، وتكرر الى دور الحديث وتــــردد .

وقدم على هذه البلاد قدوم النسيم البليل ، على كبد العليل . ولما استقر بها قراره ، واشتمل بجفنها غراره ــ بادرت الى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته . فاجلتيت السرور شخصا ، وطالعت ديوان الوفا مستقصى ، وعلمت معنى الكلام تأويلا ونصا . فحيا الله زمن اقترابه ، فلقد جاد وأجــاد ، وأفاد ما لا أخاف عليه النفاد .

وأما شعره فليس بحائد عن الاحسان ، ولا غفل عن غرر البيان .

ومن ذلــك فى وصــف :

88 ــ صاحب القلم الاعلى بالمغرب أبى محمد عبد المهيمن الحضرمى (118)

الفذ الذى يعدل بالالوف ، والبطل المعلم عند مناجزة الصفوف ، والمتقدم بذاته وأداته تقدم الاسماء على الحروف .

نشأ بسبتة ــ حرسها الله ــ بين علم يفيده ، ومحل يشيده . وطهارة يسحب مطارفها ، ورياسة يتقيأ وارفها . وأبوه ــ رحمــه الله ــ (110 : ب) قطب مدارها ، ومقام حجها واعتمارها . فسلك الحزون من المعارف والسهول ، وبذ ــ على حداثة سنه ــ الكهول . ولما تحلى من الفوائد العلمية بما تحلى ، وبرز فى ميدان المعارف وجلى، واشتهر الصباح اذا تجلى ــ تنافرت اليه همم الملوك الاخائر واستأثرت به الدول ــ على عادتها ــ فى الاستئثار بالذخائر . فاستقلت بسياستها

---

118) هو الاستاذ الرئيس أبو محمد عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمــن بــن محمد بن على بن محمد الحضرمى النسبه ، السبتى النشاة ، يتصل نسبــه بالصحابى العلاء بن الحضرمى ، وقد وفدت الاسرة من اليمن الى الاندلس ، ثم نزح والد المترجم له الى سبتة ، حيث شغل منصب القضاء بها على عهد بنى العزفى امرائها . وفيها ولد صاحبنا عام 676 هـ ، ولما شب عن الطوق وحفظ القرآن الكريم قرأ على شيوخ المغرب البارزين ، أمثال رشيد والغافقى وابن الغماز وغيرهم ، حتى ابلغت مشيخته نحو الالف . وتولى منصب الكتابة بالمغرب للسلطان ابى على بن ابى سعيد المرينى عام 712 هـ . وصفه الاميــر أبو الوليد ابن الاحمر بقوله : « بيته بيت علم سحب من التحصيل ذيــلا ، وتضوعت من عرف عرفانه نواسم التفنن نهارا وليلا وطوقته المفاخر طوقا ، واذاقه الفهم من حلاوة العلوم ذوقــا » .

توفى ــ رحمه الله ــ بتونس بمرض الطاعون الجارف فى 12 شوال عام 749 هـ راجع : أبى الوليد ابن الاحمر فى : مستودع العلامة ، ومستبدع العلامة . . تحقيق محمد التركى التونسى ، ص 50 (ط معهد مولاى الحسن للبحوث بالمغرب 1964 م) . وكذلك : الاستاذ عبد الله كنون فى « ذكريات مشاهير رجال المغرب ــ عبد المهيمن الحضرمى » نشر دار الكتاب اللبنانى (بيروت ط 1 مايــو 1960 م) .

ذراعه ، وأخذم السيوف والذوابل يراعه (119) . وهو — الآن — عينها التى بها تبصر ، ولسانها الذى تسهب به وتختصر .

وقد تقدمت له — الى هذه البلاد — الوفادة ، وحلت به لديه الافادة . وكتب عن بعض ملوكها وانتظم فى سموطها الرفيعة وسلوكها .

وله فى الادب الراية الخافقة ، والعقود المتناسقة . فما شئت من لفظ طاب عرفه ، ومعنى سحر الالباب ظرفه . وقد أثبت من كلامه فى « ريحانة الكتاب » ما تتمناه النحور بدل قلائدها ، وتجعله الحور تمائم على ولائدها .

ومن ذلك فى وصف :

89 — (111 : أ) الخطيب أبى عبد الله بن رشيد (120)

بحر معارف لا يسبر غوره ، وروض فنون تضوع مسراه واينع نوره ، وفريد زمانه الذى لا يأتى بمثله دوره .

---

119) يقصد بالعبارة ، ان قلمه جعل السيوف والذوابل تقر بالذل وتسكن ، كناية عن رفعة الشأن .

120) هو الشيخ أبو عبد الله بن رشيد الفهرى السبتى ، من كبار الائمة ، ومشاهير الخطباء . كانت ولادته بسبتة عام 657 هـ ، وتوفى بفاس فى شهر المحرم من عام 721 هـ ، وبها دفن بمطرح الحلة من القباب . وترجع شهرة المترجم له الى انه كان واحدا من المحدثين ذوى الاسناد وممن عرفوا بالتضلع فى علوم النحو والعروض والادب ، كما كان مؤرخا عالما فى القراءات ، رحالة .

وفد على غرناطة العاصمة ، فتولى الخطابة بمسجدها الاعظم حوالى عام 692 هـ واقام حينئذ فترة من الزمن ، حيث ظفر بمكانة سامية تليق بمقامه ، وقصد المشرق مرتحلا مرتين ، وخلال تجواله التقى بالعلماء وأخذ عنهم ، ولما عاد من رحلته الاخيرة وضع كتابا حول هذه الاسفار ، وأخيرا قفل راجعا الى فاس ، واقام بها حتى توفى رحمه الله .

راجع : ابن الخطيب فى « نفاضة الجراب » تحقيق د. العبادى ج 2 ص 307 — 352 (القاهرة 1968) . والاستاذ عبد الله كنون فى « النبوغ المغربى » ص 206 — 207 (بيروت 1961) .

نشأ ببلده سبتة ــ حرسها الله ــ أصون من الدر فى صدفه ، وأطهر من الماء فى نطفه . لا يسرح ــ فى غير المطالعة ــ طرفا ، ولا يتنشق ــ لغير المعارف ــ عرفا . حتى سما مقداره ، وكمل فى وطنه ابداره ، فأشارت اليه العيون . وطمح الى الرحلة والزمان برحاله غنى وبكل قطر روض جنى ، وعالم سنى . فرحل عن بلده رحيل الغمام بعدما أمطر ، واقشع اقشاع الربيع عقب ما أزهر . ولم يزل يطلع بكل ثنية ، ويعشو الى نار كل فائدة سنية . وكلما مر بفائدة فى طريقه صرف اليها أعنة فريقه . حتى عرس بالمثوى الجليل ، واستظل بالجدار الذى رفعت قواعده أكف الخليل (121) ونقع من ماء زمزم معتدم العليل (122) . وسنح له باليمن طيره ، وأحسب رحلته بالحرم الامين أبو اليمن وغيره . ثم صرف عنان أمله وسوله (112 : ب) الى زيارة قبر نبى الله ورسوله ، فصلى بين روضته الطاهرة ومحرابه ، وتمتع ما شاء من لثم جداره وانتشاق ترابه . ودخل الشام فى منصرفه ، مستكثرا من عيون العلم وطرفه ، وآب الى جوه وقد دون رحلته العظيمة الامتاع ، وأتى منها ما يقيد النواظر والاسماع وسماها بـ « ملء العيبة ، فيما قيد بطول الغيبة الى مكة وطيبة » (123) اسم وافق مسماه ، وسهم أصاب مرماه .

ولحق بالاندلس ، فتهللت لقدومه أسرتها ــ واحتفلت لقراه درتها . وأخذ عنه صدورها واستمدت من تمه بدورها . وفعم

---

121) يعنى به « البيت الحرام » وتعبيره اشارة الى قوله تعالى : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . . الآية »

122) معتدم العليل : ما يفتقر اليه العليل .

123) الاستاذ عبد الله كنون اسم الرحلة هكذا : « ملء العيبة ، فيما جمع بطول الغيبة ، فى الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة » مشيرا الى ان المؤلف خصص فيها قدرا عظيما لذكر مسائل الحديث واسانيده مما يشهد له ــ فى هذا الباب ــ بطول الباع ، وقلة النظير ، مع رسوخ القدم فى التمسك بالسنة والعمل بمقتضاها .

راجع « النبوغ المغربى » ص : 193 .

مجالسها العلمية طيبا ، وصعد منبر الحضرة خطيبا . وله من مدبر الدولة النصرية ذى الوزارتين ابن الحكيم (124) محلة ، وفاء عليه ظله ، لمودة بينهما عقدت ، ورسائل ــ قبل الرياسة ــ نقدت ، فانه كان رفيق طريقه ، ومساعده على تشريعه . انتفع به لديه الكثير ، وأنجح الآمال محله الاثير .

ولما محقت النكبة نوره (125) ، وقصرت على العفاء قصوره ، ضاق بالخطيب ــ رحمه الله ــ العطن ، ونبا به بعده الوطن . (112 . أ) فارتحل الى المغرب ، ولم يزل به رفيع المكانة ، صدرا فى أولى العلم والديانة . حتى انصرم أجله ، وانقطع عن الحياة أمله .

وكان له شعر يتكلفه ، ولا يكاد ــ لعدم شعوره بالوزن ــ يتألفه . ومع ذلك فأعلم أهل زمانه بالبديع وألقابه ، والكلام على أبوابه .

---

124) هو الاديب الشاعر أبو عبد الله بن الحكيم اللخمى الرندى ، وزير السلطان محمد المخلوع (701 ــ 708 هـ) واحد شيوخ ابن الخطيب ممن تتلمذ عليهم فى ميدان الادب والشعر ، له مؤلف لم يصل الينا اسماه « تاريخ الاندلس » ، توفى ابن الحكيم قتيلا عام 1308 م اثر خلع سلطانه المذكور . وتجدر الاشارة بهذه المناسبة الى ان لقب « ذى الوزارتين » يرجع الى عهد ملوك الطوائف ، وهو من القاب التشريف والتفخيم المتضمنة ازدواج الاختصاص ، اى جمع صاحبه بين وزارتى القلم والسيف ، وقد حظى بهذا اللقب عدة من اكابر وزراء عصر الطوائف ، مثل الشاعر ابى الوليد بن زيدون وزير بنى جهور وبنى عباد والشاعر ابى بكر بن عمار وزير المعتمد بن عباد ، وابى بكر ابن القصيرة كاتب امير المسلمين يوسف بن تاشفين ويعتبر أبو بكر بن عمار اشهر من اضطلعوا بمنصبى القيادة والوزارة . ولئن كانت الوزارة قد تسوارت ايام المرابطين ثم الموحدين ، الا انها عادت الى الظهور فى مملكة بنى نصر بغرناطة ، فكان « ابو عبد الله ابن الحكيم » اول من حمل اللقب فى هذه المملكة ، ثم تلاه حاملا نفس اللقب « لسان الدين ابن الخطيب » .
راجع : لسان الدين ابن الخطيب ــ للاستاذ عبد الله عنان ، ص 34 ، 106 ، 214 (القاهرة 1968) . وكذا يوسف الاول ابن الاحمر ، للمحقق ، ص 43 (القاهرة 1969) .

125) يعنى بهذه النكبة الانقلاب الذى اودى بحياة صديق المترجم له الوزير ابن الحكيم ، على نحو ما اسلفنا فى التعليق .

ومن ذلك فى وصف :

90 ــ أبى عبد الله بن هانى السبتى (126)

علم تشير اليه الاكف ، وتعمل الى لقائه الحوافر والخف ، عمر الربع ببلده سبتة وقد قضت الرحال ، وأقام درس العلم وقد حالت الحال ، وجاد بالوابل السجم عندما عظم الامحال . ورفع للعربية راية لا تتأخر ، ومرج منها لجة تزخر . فانفسح مجال درسه ، وأثمرت أدواح غرسه . فركض فى تلك الميادين ومرح ، ودون وشرح . وجلى المشكلات ، وداوى المعضلات الى شمائل تملك الظرف زمامها ، ونادرة راشت الدعابة سهامها .

ولما أخذ المسلمون فى مناوشة الجبل وحصاره ، وأصابوا الكفر منه بجارحة ابصاره ، ورموا بالثكل فيه نازح امصاره ــ كان ممن انتدب وتطوع ، وسمع النداء فاهطع . (112 . ب) فلازمه حتى نفذ لاهله القوت ، وبلغ من فتحه الاجل الموقوت . فاقام الصلاة بمحرابه وحياه ، وقد غير محياه طول اغترابه ، وبادره الطاغية قبل أن يستقر نصل الاسلام فى قرابه ، أو يعلق أصل الدين فى ترابه . وانتدب ــ رحمه

---

126) هو الشيخ الفقيه الاديب أبو عبد الله محمد بن هانىء اللخمى السبتى ، أحد المبرزين من علماء الاندلس فى العربية ، وله المؤلفات الهامة فى علوم الدين والادب ، منها : شرح « التسهيل لابن مالك » ، وكتاب « الغرة الطالعة ، فى شعراء المائة السابعة » ، و « انشاد الضوال ، وارشاد السؤال » ، وهو يتناول لحن العامة ، كما دون ترسيل أبى المطرف بن عميرة ، وجعله فى سفرين . وقد توفى ــ رحمه الله ــ شهيدا فى حصار جبل طارق عام 733 = 1333 م ، ورثاه الشعراء بقصائد مؤثرة ، نذكر منها قصيدة الشاعر أبى بكر بن شيرين التى يقول فيها :

قد كان ما قال البريد . فاصبر فحزنك لا يفيد
أودى ابن الرضى فاعتادنى للثكل عيد

راجع : النبوغ المغربى ــ للاستاذ عبد الله كنون ، ص 210 ــ 211 .

الله ــ الى الحصار وتبرع ، ودعاه أجله فلبى وأسرع . ولما هدر عليه الضيق ، وركعت الى قبلته المجانيق ــ أصيب بحجر حوم عليه كالجارح المحلق ، وانقض اليه انقضاض البارق المتألق . فاقتنصه واختطفه ، وعمد الى زهرة فقطفه . فمضى الى الله طلوع نيته ، وصحبه غرابه المنازع حتى فى منيته .

وكان له أردب قاعد عن مداه ، وقاصر فى جانب العلم الذى شمله وارتداه .

ومن ذلك فى وصف :

91 ــ أبى الحسن بن تداوت

درة تحلى بها الدهر العاطل ، وعدة أنجزها الزمان الهاطل . وغرة أطلعها العصر البهيم ، وفائدة أنجبها الدهر العقيم . ما شئت من خلق تدل على الكمال مخائله ، ومجد كرمت أواخره وأوائله ، وأدب تجلت عذاراه وتبرجت عقائله . فاذا تناول (113 . أ) القاع ووشاها ، وغشى الطروس من خلل بيانه فما عشاها ــ ودت الجرود أن تتمثل طرسا ، والجفون السود أن تكون لها نفسا .

ورد أبوه ــ رحمه الله ــ على البلاد الاندلسية ، فرحبت بمقدمه عليها ، وجلت افادة وفادته لديها . ففاءت بها ظلال معارفه التى اغترس ، ودرس فيها علم الاصول بعدما درس . وتصرف فى القضاء ، تصرف العدالة والمضاء . ونشأ ابنه هذا كريم النشأة والبداية ، وكنوفا بظل العناية . وتصرف فى القضاء على حداثة سنه وغضارة عوده ، وقرب العهد بتألق سعوده .

ثم حث ركاب ارتحاله ، وبادر حزمه بحل عقاله ، فسعد سعادة شبيهة القمر عند انتقاله . وهو الآن بدولة المغرب ــ أيده الله ــ جملة

من جمل الكمال ، ومظنة للآمال . تغرى بثنائه الالسن ، ويروى من أحاديثه ما يصح ويحسن . وورد على هذه البلاد ورود الكرى على مقلة الساهر ، واحتلها احتلال النسيم بين الازاهر . وجمعتنى واياه بعض الاسفار ، فى غزوات الكفار . (113 . ب) فاجتنيت منه الفوائد بين فرادى ومثنى ، واجتليت منه المحاسن حسا ومعنى .

وقد أثبت من آدابه ما يستعير النسيم العاطر عرفه ، ويحسد الروض حسنه وظرفه .

ومن ذلك فى وصف :

92 ــ القاضى أبى الحجاج الطرطوشى

روض أدب لا تعرف الذرى أزهاره ، ومجموع فضل لا تخفى آثاره . كان ــ رحمه الله ــ صدرا من صدور زمانه ، وممن تزهى المهارق (127) بجمانه ، وتتجلى لباتها بقلائد عقيانه الى ظرف يستهوى النفوس ويستميلها ، وفكاهة تهز أعطاف الوقار وتميلها ، ودعابة تركض أفراس الطرب وتجيلها . ومعرفة فسيحة المدى ، انتشح بفضلها وارتدى ، وغبر فى وجه من راح أو غدا .

وكان فى فنون الادب مطلق الاعنة ، وفى مغازيه ماضى الظبا والاسنة . فان هزل ــ والى تلك الطريقة اعتزل ــ أبرم فى الغزل ما غزل ، وبذل من دنان راحه (128) مابذل . وان صرف الى المغرب غرب لسانه ، وأعاره لمحة من لمحات احسانه ــ أطاعه عاصيه ، واستجمعت لديه أقاصيه .

---

127) المهارق : بفتح الميم وكسر الراء ، ج مهرق بضم الميم وفتح الراء ، وهى الصحيفة ، كما تطلق على ثوب من الحرير ابيض يسقى الصمغ ويصقل ، ثم يكتب فيه ، كذا فى القاموس واللسان ، وكلا المعنيين مناسب .

128) دنان راحه : بكسر الدال أوعية خمرة ، والمفرد : دن ، بفتح الدال وتشديد النون .

(114 . أ) ورد على الحضرة الاندلسية (129) والدنيا شابة ، وريح القبول هابة . فكتب عن سلطانها واجتلى محاسن أوطانهـا ، ومدح بعض أملاكها ، وعشى الى نور أفلاكها . ثم كر الى وطنه وعطف ، وأسرع اللحاق بجوه كالبارق اذا خطف ، فورد من العناية الحياض الفاهة (130) والنطف ، وحل رياض الكرامة فهصر ما شاء وقطف . وتصرف فى القضاء بذلك الريف سالكا من الادب سننه الطريف ، ومنزعه الظريف .

وتوفى ــ على هذا العهد ــ عن سن عالية ، وبرود من العمر بالية . وقد حلب أشطر الدهر وأخلافه (131) وارتضع سلافه ، حتى أمر عنده من العيش كل عذب الجنـا ، وبدل من الشطط بالجنا . وبلغ من المقام لهذه الدار حده ، والبقاء لله وحده .

ومن ذلـك فى وصـف :

93 ــ أبى العباس بن شعيب (132)

مورد ترده البهيم فتروى ، وتهوى اليه النفوس فتجد عنده مـا تهوى . وصدر لا يخفى مكانه ، وذخر أضاعه زمانه . (114 . ب) حاز من كل فن نصيبا ، ورمى الى كل غرض سهما مصيبا . واستمطر كـل

---

129) يعنى بالحضرة الاندلسية على عصره « غرناطـة » .
130) الحيـاض الفاهقـة : الممتلئـة .
131) التعبيـر كناية عن انه خبر الدهـر وجربـه .
132) هو الكاتب الشاعر ابو العباس احمد بن شعيب الجزنائى الفاسى . مـن حفظة الشعر ونقدته ، وممن جمعوا بين ملكة الشعر والنثر بالاضافة الى جودة الخط . عمل كاتبا فى ديوان الانشاء لدى السلطان ابى الحسن المرينى ، وشهر عنه ــ مع ذلك ــ معرفته بالطب والكيمياء وعلم النبات . توفى بتونس يوم عيد الاضحى من عام 749 هـ (مارس 1349 م) .
راجع : المصدر السابق ، ص : 227 .

عارض وديمه ، من العلوم الحديثة والقديمة فبرع فى فنونها وبهـر ، وحذق الطب منها ومهر . وبلغ فى صنعة النبات درجة الاثبات . ورضى بالانتماء الى العلم والانتساب ، من الاكتساب . فما أهمه الدهر بألوانه، ولاثناه عن شأنه . وعانى فى حركاته وانتقاله ، مشقة اعتقاله ، وخلص خلوص الحسام بعد صقاله . وهو ــ الآن ــ من كتاب ملك المغرب (133) تطوى عليـه الخناصر اذا عدوا ، وتدخر لقصب السبـق اذا أحصروا واشتـدوا .

ورد على الحضرة فى خدمة لبعض الولاة تولاها ، ووجهة فرى لها الفلا وفراها . فرأيته رؤية لم تنهض للمحاورة والكلام ، والمخاطبة لما يجب لمثله من الاعلام ، لجمود هذا الباعث عندى فى العهد المتقدم (134) ولم ألبث أن عضضت يد المتندم ، أسفا على ما ضاع من لقائه ، واجتلاء الفوائد من تلقائه .

وله شعر تهوى الشعرى أن تتخذه شنفا (135) (115 . أ) ، ونثر تود النشوة لو تتحلى بـه وان شمخت أنفا . من ذلك ما خاطب بـه الشيخ أبا جعفر بن صفوان ، وقد رمى اليه بقاصية هواه ، واعتده فى رحلته أنفس ذخـر حـواه .

---

133) السلطان ابو الحسن المرينى ، كما ذكرنا (731 ــ 752 هـ) .

134) يشير ابن الخطيب بهذا الى فترة شبابه بالاندلس ، حينما كان وزيرا لملك غرناطة أبى الحجاج يوسف الاول (733 ــ 755 هـ / 1333 ــ 1354 م) المعاصرة لملك المغرب يومئذ (ابى الحسن المرينى) ، ونستنتج من اشارة ابن الخطيب هذه الى أن تاريخه لهؤلاء المترجم لهم ــ فى هذا الكتاب ــ كان بعد نزوحه للمغرب نهائيـا .

135) الشنف . بتشديد الشين مع الفتح واسكان النون ، وهو : ما يعلق فى الاذن أو أعلاها من حلى عند النساء ، والجمع : شنوف ، واشناف .

ومن ذلــك فى وصــف :

94 ــ « الكاتب أبى عبد الله بن عمر التونسى »

كاتب الخلافة ، ومشعشع الادب المزرى بالسلافة . كان ــ رحمه الله ــ بطل مجال ، ورب روية وارتجــال .

قدم على هــذه البلاد (136) وقد نبا وطنــه ، وضاق ــ ببعض الحوادث ــ عطنه . فتلوم بها تلوم النسيم بين الخمائل ، وحل فيهــا محل الطيب من الوشاح الجائل . ولبث ــ مدة اقامته ــ تحت جراية واسعة ، وميرة يانعة . ثم آثر قطره (137) فولى وجهه شطره . واستقبله دهره بالانابة ، وقلده رياسة الكتابة . فاستقامت حاله ، وحطت رحاله .

حدثنى بعض من عنى بأخباره ، أيام مقامه برية واستقراره . أنه لقى بباب الملعب ذات ليلة ــ ظبية من ظباء الانس ، وفتنة من فتــن (115 . ب) هذا الجنس . فخطب وصالها ، وانتقى بمهجته نضالها . حتى همت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن الميادَ . فأبقى علــى نفســه وأمسك ، وأنف من خلع العذار بعدما تنســك .

ومن ذلــك فى وصــف :

95 ــ « أبى عبــد الملك » (138) مــن أهــل مــراكــش

وقور أفرط حتى أثقل ، وقريع مجد مسه الاحتياج فتنقل ، ووجد الجميم فعافه وتبقل . وحل من بلده مراكش لما جف حوضه ، وصوح

---

136) هذه البلاد : يعنى بها الاندلس .

137) قطره : يعنى بــه تونــس .

138) مراكش : عاصمة المرابطين والموحدين بجنوب المغرب ، اسسها زعيم الاولين واعظمهم يوسف بن تاشفين عام 454 هـ (1062 م) وبنى بها مسجده

روضه . واتخذ رية دارا ، واختارها قرارا . وجرت عليه جراية تبلغ بها ، وارتغد بسببها ، رعيا لابيه ، واحتراما لبيته النبيه . فقد كان أبوه ـ رحمه الله ـ قاضيها صدرا فى عصره ، وبدرا فى هالة قطره . رحب المجال نسيج وحده معرفة بطرق الحديث واسماء الرجال . متجرا فى علوم الآداب ، منتدبا لاقامة رسم المعارف كل الانتداب .

وابنه هذا متمسك من الآداب بأذيالها ، مغرى بادارة جريالها . الى سرو عميم (139) ، ووفاء يثنى كل صديق (116 . أ) له حميم . ولما تقلدت بهذه البلاد تنفيذ أرزاق الاجناد بادرت الى تقديم واجبه ، وايثار جانبـــه .

ومن ذلــك فى وصــف :

96 ـ أبــى اسحاق الحسانــى
مــن أهــل تونــس

شاعر لا ينضب طبعه ، ولا يقفر ربعه . قصد الملوك وانتجع ،

المعروف باسم « جامع يوسف » ولما جاء المرينيون تحولوا عنها الى « فاس » واتخذوها حاضرة لهم ، فنقدت مراكش من ذلك الحين مركزها السياسى . وقد شيد بها الموحدون جامع الكتبية بمنارته الشهيرة ، وبمراكش مــن آثار السعديين مقابرهم العظيمة ، وللعلويين بها جنان أجدال ، التى انشاها عبد الرحمن بن هشام العلوى . وبالمدينة ضريح القاضى عياض ، وابو العباس السبتى ، وأبو القاسم السهلى ، ومحمد بن سليمان الجزولى .
تشتهر مراكش بصناعة الجلد والصباغة والنحاس ، والمنسوجات الوطنية ، والزرابى . وخارجها مزارع الزيتون ، وواحات النخيل الشاسعة ؛ تحوطها جبال الاطلس التى تكسوها الثلوج شتاء .
راجع : البغدادى فى « مراصد الاطلاع ، على اسماء الامكنة والبقاع » ج 3 ، ص 1251 .

139) ســرو عميم : شرف شامـــل .

وهدل فى أفنان أمداحها وسجع . وتجرأ على اقتحام دسوتها (140) ، وولوج بيوتها . وقدم على هذه البلاد فأعجب الادباء باكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره ، وتنوزع فى ايثاره . ثم استرسل طوع لذاته ، وسعى فى جلب المكروه الى ذاته . ونمى عنه قيل وقال ، ناله به اعتقال . ثم تكرر على هذه البلاد وقد تبدلت تلك الدولة ، وضمدت تلك الصولة . فتلقى باقبال ، وهبت له ريح اهتبال . ثم حركه الشوق الى بلده ، وبلغ نواه الى أمده .

وقد أثبت من شعره ما يدل على استرسال لهواته ، واقتداره على الكلام من جميع جهاته .

ومن ذلك فى وصف :

97 ـ أبى عبد الله المكودى (141) من أهل فاس

(116 . ب) شاعر لا يتعاطى ميدانه ، ومرعى بيان رف غضاه وأينع سعدانه . يدعو الكلام فيهطع لداعيه (142) ، ويسعى فى اجتلاب

---

140) دسوتها : يعنى بها صدور المجالس . والمفرد منه دست ، بفتح فسكون ، والكلمة أصلا فارسية ولها عدة معان أخرى ، منها صدر البيت ، والوسادة والمرجل الكبير من النحاس ، وغير ذلك . كذا فى القاموس المحيط .

141) هو الاديب الشاعر محمد بن عبد الرحمن المكودى الفاسى ، يكنى أبا عبد الله ، والنسبة الى بنى مكود ، قبيلة من الهوارة التى كانت تقطن بين فاس وتازة ، ثم استقرت أسرة المترجم له فى فاس ، فعرفت من بين بيوتها العريقة بالعلم والفضل ، ويعد أبو عبد الله هذا من شعراء عصره المبدعين ، وممن عرفوا بدقة تصوير العواطف النفسية ، وجودة التعبير عنها ، حتى كان لشعره وقع جميل فى قلوب سامعيه . توفى ـ رحمه الله ـ عام 753 هـ .
راجع : الاستاذ عبد الله كنون فى « النبوغ المغربى » ص : 227 ـ 228 .

142) يهطع لداعيه : يسرع اليه مقبلا ، والمصدر منه : هطعا ، بفتح فسكون ، وهطوعا بالضم .

المعانى ، فتنجح مساعيه . غير أنه أفرط فى الانهماك ، وهوى الى بطن السمكة من أوج السماك .

قدم على هذه البلاد مفلتا من رهق تلمسان حين الحصار (143) ، صفر اليمين واليسار من اليسار فل هوى انحنى على طريفه وتلاده ، وأخرجه من بلاده . ولما جد به البين ، وحل هذه الحضرة بحال تقتحمها العين ، والسيف بهزته ، لا بحسن بزته ــ دعوناه الى مجلس أعار البدر هالته ، وخلع عليه الاصيل غلالته . وروض تفتح كمامه ، وهمى عليه غمامه . وكأس أنس تدور ، فتتلقى نجومها البدور .

ولما ذهبت المؤانسة لخجله ، وتذاكر هواه ، ويوم نواه ، حتى خفنا حلول أجله ــ جذبنا للمذاكرة زمامه ، واستسقينا منها غمامه . فأمتنع واحسب ، ونظر ونسب . وتكلم فى المسائل وحاضر بطرف الابيات وعيون الرسائل . حتى نشر الصباح رايته . وأطلع النهار آيته .

ومن ذلك فى وصف :

98 ــ الاديبة أم الحسين بنت أحمد الطنجالى نزيلة لوشة

ثالثة حمدلة وولادة ، وفاضلة جمعت الادب والمجادة ، وتقلدت المحاسن قبل القلادة ، وأولدت أبكار الافكار قبل سن الولادة . نشأة

---

143) تذكر المؤرخات فى صدد هذا الحصار ، أن ابا تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان كان آخر من تولى الملك من بنى زيان فى تلمسان عام 718 هـ ، ثم نشب خلاف بينه وبين السلطان أبى عنان ملك المغرب الذى هب لمنازلته ، وحاصره ثلاث سنوات ، بعدها استولى أبو عنان على المدينة ، وذلك ليلة 27 من شهر رمضان 737 هـ (29 أبريل 1337 م) . راجع : « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » لابن الخطيب بتحقيقنا ، ص : 57 وما بعدها (القاهرة 1968 م) .

أبيها لا يدخر عنها تدريجا ولا تنبيها ، حتى نبض ادراكها ، وظهر فـــى المعارف حراكها . ودرسها الطب ففهمت أعراضه ، وعلمت أسبابـــه وأغراضه . ولم يزل يتعهدها بالتعليم والتخرج ، وينقلها بحسن التدرج ، حتى نظمت الكلم ، وداوت بالسبك المعنى الالم .

ولما قدم أبوها من المغرب ، وتكلم بخبرها المغرب ، توجه بعض الصدور الـــى اختيارها ، ومطالعة أخبارهـــا . فاستحسن أغراضهـــا واستحسنها واستظرف لسنها . وسألها عن الخط ــ وهو أكسد بضاعة جلبت ــ فأنشدته من نظمها ما ثبت فى التاج (المحلى ، فى مساجلة القدح المعلـــى) (144) .

---

144) التاج المحلى : أحد مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب ، وهو عبارة عن تراجم لاعيان الاندلس فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، وتنويه بمملكة بنى الاحمر منذ نشأتها حتى عصر المؤلف . وقد اعتمد المقرى على هذا الكتاب فى كثيـــر من التراجم التى أوردها فى كتابه « نفح الطيب » . وتوجد « للتاج المحلـــى » نسخة مخطوطة ضمن مخطوط ضخم بالاسكوريال بمدريـــد تحت رقـــم : (554 الغزيرى) .
راجع : البحث المنشور للمحقق فى مجلة « تراث الانسانية » ، بعنوان : « معيار الاختيار لابن الخطيب » ، المجلد الرابع ــ العدد 4 (ابريل 1966) الصادرة عن وزارة الثقافة بالقاهـــرة .